تحطّم آمال القضاء على الصفويين:
غزوتان شرقيتان فاشلتان

بعد أن عقد السلطان سليمان معاهدة الصلح في إسطنبول عام ١٥٤٧م، ولّى وجهه شطر الشرق مجددًا. ذلك لأن انشغال العثمانيين بغزواتهم البرّية والبحرية في الغرب وأوروبا تمخّض عنه بعض النتائج التي لم تكن تصب في مصلحتهم، ومنها: تمهيد أرضية مواتية لإعادة الشاه "طهماسب" تنظيم شؤون إيران الداخلية، وسيطرته على جورجيا وشيروان، وحصوله على مدينة "قندهار" من الهند كشكرٍ منهم على مساعدات أرسلها إليهم، وردّه لهجوم الأوزبك. ولقد استطاع الشاه خلال تلك الفترة نشر المذهب الشيعي في أذربيجان وعراق العجم، أي مناطق "غنجة (*Gence*)"، و"قره باغ (*Karabağ*)"، و"رافان (*Revan*)"، و"نخجوان (*Nahcivan*)". كما لم يتورّع عن اضطهاد أهالي "شيروان"، وإرسال الجواسيس والخطابات إلى العشائر التركمانية المقيمة في الأناضول لاستمالتهم إلى إلحاقهم بمقاطعة "أردبيل" الإيرانية. وفي واقع الأمر، لم تسنح الفرصة لتوقيع أي اتفاقية أو معاهدة بين العثمانيين والصفويين في أعقاب غزوة العراقيْن التي قام بها السلطان سليمان. فبعد عودة العثمانيين مباشرةً من هذه الغزوة، استعاد الشاه من أيدي العثمانيين على الفور مدنًا مثل "وَانْ"، و"واسطان"، و"أرجيش"، و"بايزيد". حتى إنه أخمد ثورات أهل هذه المناطق من السُنّة، وأذاقهم شتّى صنوف العذاب. وعلى الرغم من ذلك، شهدت إيران بعض الاضطرابات الداخلية بين الفينة والأخرى. وكانت إيران في ذلك الوقت تهتزّ داخليًا بسبب الشقاق الناشب بين أفراد الأسرة الصفوية، واستهتار الجماعات التركمانية التي كان يعتمد عليها الصفويون. ولعلّ لجوء "القاص مِيرْزَا" شقيق الشاه إلى العثمانيين واحتمائه بهم كان من أبرز تلك الأحداث، كما منحت هذه الواقعة الفرصة إلى العثمانيين لغزو إيران.

وفي أعقاب سقوط "شيروان" بأكملها في أيدي الصفويين عام ١٥٣٨م، عُيّن "القاص مِيرْزَا" حاكمًا عليها في "شماهي"، وبعد ذلك تملّكته رغبة في الاستقلال عن شقيقه، وبدأ في تطبيق حركة استقلالية عام ١٥٤٦م، حتى إنه امتنع عن سداد الضرائب وإرسال الجنود إلى الشاه. فأرسل إليه أخوه الشاه بعض الرسل للاستفسار عن ذلك الأمر، وأدرك حينها أنه لا يملك القدرة على مجابهة شقيقه بعدُ، فعمد إلى إيفاد والدته وابنه إلى الشاه ليخبراه بأن شيئًا كهذا لن يحدث أبدًا، وأن تصرُّفه هذا فُهم بشكل خاطئ، واضطر في نهاية الأمر إلى إنكار عزمه على الاستقلال بولايته. وبالرغم من تظاهر الشاه بأنه عفا عن شقيقه جرّاء هذه الواقعة، فإنه كان يعتزم غزو جورجيا في البداية، ومن ثَمّ معاقبته بعد الانتهاء من هذه المهمة. وخرج "طهماسب" على رأس جيشه من عاصمته "تبريز" عام ١٥٤٦م متوجّهًا إلى جورجيا، فتقدّم حتى وصل مدينة "أَهيلْكَلَكْ (*Ahılkelek*)" الجورجية، ونجح في الحصول على العديد من الأسرى والغنائم هناك. وبينما كان الشاه في طريق عودته بحلول فصل الشتاء، أتاه اثنان من أمراء جورجيا ("ليفيند خان (*Levend Han*)"، وحاكم "بَاشَاشوق (*Başaçuk*)") وأعادا تقديم فروض الطاعة والولاء لينقذا نفسيهما من هجوم محتمل كان سيقوم به الشاه. وفي شهر كانون الثاني/يناير عام ١٥٤٧م أرسل الشاه قوة عسكرية قوامها ٥ آلاف مقاتل على حين غِرّة لمهاجمة أخيه "القاص مِيرْزَا". ولقد ألحقت هذه القوة هزائم متتالية بهذا الأخير بعدما هاجمته وضيّقت الخناق عليه، مما اضطره للانسحاب إلى مدينة "دميرقابو". وكان يتعقّب "القاص مِيرْزَا" أثناء انسحابه حاكمُ مدينة شكي "محمد خان". فلجأ "القاص" إلى منطقة "داغستان شيمهالي" برفقة ٤٠ رجلًا كانوا بصحبته، ثم انطلق إلى إسطنبول عبر مدينتي "أزاك (*Azak*)" و"كَفَه"، وقدّم فروض الطاعة للسلطان سليمان. وفي تلك الأثناء، كانت كل مناطق "شيروان" قد سقطت مجددًا في يد الشاه الذي أسند إدارتها إلى ابنه "إسماعيل مِيرْزَا الثاني".

وعندما بسط الشاه سيطرته على دولة "شيروان" عام ١٥٣٨م، كان حاكم تلك المنطقة سلطان برهان علي بن خليل الثاني قد فرّ هاربًا واستغاث بقبائل

"تركمـان القايتـاق". ثـم ذهـب إلى إسـطنبول، وحصل على بعض المسـاعدات من الدولة العثمانية، ومن ثَمّ عاد مجددًا إلى "داغستان". لكنه اضطر للانسحاب فـي مواجهة قوات "القاص مِيرْزَا" الذي كان يحكم "شـيروان" في ذلك الوقت، وعاد بعدها إلى إسطنبول مرة أخرى. والآن، فإن لجوء "القاص مِيرْزَا" هو الآخر إلى العثمانيين تمخّض عنه حالة غريبة من وجهة نظر هذين العدوّين القديمين. ففي البداية طلب "برهان علي سلطان حفيد الشاه "إسماعيل الصفوي" المساعدة من العثمانيين، وأما الآن فقد لجأ "القاص مِيرْزَا بن الشـاه إسـماعيل" هو الآخر إلـى البـلاط العثمانـي لإنقـاذ دولتـه من بيـن يدي أخيـه "طهماسـب". وعندما هـرب "القـاص" ووصل حديثًا إلى "كَفَه"، بعثـت الحكومة العثمانية برهان علي إلـى شـيروان، وهـمّ هـذا الأخيـر إلـى طـرد "إسـماعيل الثاني بن طهماسـب" من وطن أجداده، وسيطر على دولته مجددًا.

استـقبل السـلطان سـليمان "القـاص ميـزرا" الـذي هـرب من "شـيروان" إلى إسـطنبول وسـط مراسـم فخمة للغاية. وقد همّ الوزير السُّنّي "سيد عزيز الله شـيرواني" الـذي كان من علماء السـنة في "شـيروان" ومِيرْزَات "القـاص مِيرْزَا" إلى تقبيل يد السـلطان سليمان، فيما ألبس السـلطان "القاص" القفاطين الثمينة، وأتحفـه بمجموعـة جياد على ظهورها أطقم مزينـة ومرصعة بالحلي، وخصّص لـه بعض الرجال لخدمته. ويـروي المؤرخ العثماني بَجُويْلُـو هذه الواقعة حول وصول القاص إلى إسطنبول فيقول:

> "عندما وصل السـلطان من أدِرْنَه إلى إسـطنبول، أجلسوا "القاص مِيرْزَا" فـي مكان كي يشـاهد مراسـم مرور موكب السـلطان. فقـال عندما كان يشاهد ألوية الموكب وهي تدخل المدينة:
>
> "مـر مـن أمامنا قارعو الطبول، ثم رأينا أغـوات العربات والمدافع وهم يتزينون بأبهى أنواع الزينة كما هي العادة عند العثمانيين. وتساءلت أهذا هـو السـلطان؟ ثم قمت مـن مكاني واقفًا كـي أحيّي السـلطان وأعظمه وأبجله. ثم تبعه موكب قائد الإنْكِشَارِيّة، والخيّالة، ثم الوزراء. فاعتلتني حالة من الحيرة والاندهاش من فخامة موكب السلطان حينما كان يمر".

ثـم اسـتقبله السـلطان سـليمان، وقدّم إليـه الهدايـا والعطايـا القيّمة. وقد انتشرت بعض الشائعات في حقّ "القاص مِيرْزَا" في تلك الأثناء. حتى إن بعض الشـائعات بدأت في الانتشـار بين الناس تقول "لماذا كل هذه التكاليف الطائلة لاسـتقبال هذا الشـخص ومكافأته. فهو لم يأتِ رغبة منه في أهل السُـنّة، وربما جاء لإنقاذ نفسـه من بطش أخيه الشـاه. ولما وصلت هذه الشائعات إلى مسامع السلطان، قال حسب ما رُوي في هذا الصدد:

"نحن فعلنا ما يحتّمه شـرف السـلطنة علينا. وإن أقدم على أي عمل من أعمال الخيانة، فقد فوضّنا أمره إلى الله تعالى هو الذي يعاقبه".

ما إن وصل "القاص مِيرْزَا" إلى إسطنبول، حتى عمد إلى تحريض السلطان سـليمان للخـروج فـي غزوة إلى الشـرق، وقال له إنه ومـع خروجه إلى حدود إيران فإن أمراء وفرسـان العجم سـيهمّون لإلقاء القبض على الشاه "طهماسب"، وإنهم ينتظرون تشـريف السـلطان. ويُفهم من ذلك أن السـلطان سـليمان اتخذ طلـب "القـاص" هـذا كحجة للخروج في غـزوة إلى إيران، وقد كانـت لديه نيّة مبيتة أساسًـا لتنفيذ هذا الأمر. كما رغب السـلطان في الاستفادة من شقيق الشاه للنجاح في هذه الغزوة. وكانت غزوة السلطان سليمان إلى الشرق (إيران) مُقدَّرة لعدة أسـباب منها: اضطهاد الشـاه "طهماسـب" لأهل السُنّة في إيران، وتشجيع "رسـتم بَاشَـا" لـه من أجل الخروج في غـزوة إلى جورجيا، والمسـاعدات التي طلبتها قبائل الأوزبك من السلطان. وقد أفضى لجوء "القاص مِيرْزَا" إلى البلاط العثمانـي إلى إضفاء الشـرعية على هذه الغزوة. وكان السـلطان سـليمان يضع بعين الاعتبار الاضطرابات الداخلية التي تعاني منها إيران، إذ فكّر في أن الفرصة قـد سـنحت مـن أجـل أن يضع حـلًّا جذريًّا لهذه المشـاكل. كمـا لعبت بعض العوامل الأخرى دورًا كبيرًا في إجبار السـلطان سـليمان على الخروج في غزوة ثانية نحو إيران على الرغم من تقدّمه في العمر، ومن بين هذه العوامل نذكر على سبيل المثال: تضييق الشاه "طهماسب" الخناق على منطقة "شيروان"، واستنجاد أهـل السـنة فـي إيران بالسـلطان من ظلم الشـاه، وطلب قبائـل الأوزبك العون

من الدولة العثمانية، وترسُّخ مفهوم الخلافة الإسلامية واعتبار السلطان نفسه حاميًا لعرين المسلمين.

غزوة إيران الثانية

كان السلطان سليمان يفضّل الإقامة في ولاية "أدِرْنَه" ومتابعة الأخبار الواردة من أطراف حدود دولته. وقد وصلت أنباء نجاح أمير ولاية بغداد في تنفيذ حملة عسكرية ناجحة على البصرة إلى السلطان في شهر ذي الحجة ٩٥٣هـ (كانون الثاني/يناير ١٥٤٧م). وعاد السلطان سليمان بعدها إلى إسطنبول في شهر المحرم ٩٥٤هـ (شباط/فبراير ١٥٤٧م)، لكنه لم يتوجّه إلى القصر حتى شهر حزيران/يونيو من العام نفسه، وآثر قضاء وقته في الخروج في جولات الصيد حول العاصمة. ثم عاد إلى القصر يوم ١٢ ربيع الأول (١ حزيران/يونيو). خرج بعدها إلى جولة تنزّهية على ظهور الجياد برفقة "القاص مِيرْزَا"، وتناولا مسألة الخروج في غزوة إلى إيران خلال هذه الجولة. ويتحدث بعض المؤرخين العثمانيين عن أن هذا اللقاء زاد من تصميم السلطان سليمان على الخروج في غزوة صوب إيران. وربما أقنعته هذه المناقشات التي أجراها مع "القاص مِيرْزَا" بأن بمقدوره إعادة إيران إلى حظيرة العالم الإسلامي السُنّي، والقضاء على هذه الفتنة التي إن استمرت فستجرّ المسلمين جميعًا إلى عواقب لا يعلم مداها إلا الله. لكن الأحداث اللاحقة أثبتت أن الأوضاع ليست كما كان يظنّ السلطان. إذ سيكون من بين أبرز الدروس التي سيتعلّمها من هذه الأحداث هي ضرورة "تقبّل" وجود الصفويين على الساحة.

في أعقاب لجوء "القاص مِيرْزَا" إلى البلاط العثماني، بدأت الإعدادات على قدمٍ وساقٍ للخروج في غزوة إلى إيران في شتاء عام ١٥٤٧ - ١٥٤٨م. وقد خرج السلطان سليمان في جولة صيد في محيط منطقة "كوموتيني" يوم ١٢ شوال (٢٥ تشرين الثاني/نوفمبر)، ثم انتظر حتى اكتملت تجهيزات الغزوة، ومن ثم عاد إلى إسطنبول. واستُدعي وَالِي البُوسْنَة في ذلك الوقت "عُلَمَا بَاشَا" إلى إسطنبول لدرايته بأحوال إيران وشؤونها، وعُيّن في منصب وَالِي "أَرْضُرُومْ"

شرق الأناضول، كما أُسندت إليه مهمة الاعتناء بـ"القاص مِيرْزَا". ومُنح هذا الأخير راية الدولة وذيل حصان وطبلة، وانضم إلى موكبه عدد من الجنود العثمانيين. وانتقل هذا الموكب إلى منطقة "أُوسْكُودَارْ" على الشاطئ الآسيوي من إسطنبول يوم ٢١ آذار/مارس ١٥٤٨م، ثم انطلق صوب الحدود الشرقية. وعبر السلطان سليمان مضيق البوسفور من منطقة "بشيكتاش (*Beşiktaş*)" إلى "أُوسْكُودَارْ" على متن سفينة يوم ١٨ صفر ٩٥٥هـ (٢٩ آذار/مارس ١٥٤٨م) في مراسم مهيبة، وودّعه سكان العاصمة بالتهليل والأدعية. وبدأت المدافع في ضرب قذائفها في الهواء من "طُوبْ خَانَه (*Tophane*)" لتحية السلطان بينما كان في طريقه إلى "أُوسْكُودَارْ". وعندما وصل إلى منطقة "سيد غازي"، التقى به ابنه الأمير "سليم" حاكم ولاية "صَارُوخَانْ" (مَانِيسَا). فأرسله السلطان إلى ولاية "أَدِرْنَه" للحفاظ على الأمن في منطقة الرُّومَلِي. كما اجتمع السلطان سليمان في قصر "آقحصار (*Akhisar*)" بابنيه الآخرَيْن الأمير "بايزيد" حاكم ولاية "كرمان"، والأمير مصطفى حاكم ولاية "أَمَاسْيَا"، وكلّفهما بالحفاظ على المناطق التي تخضع لحكمهما في مواجهة الثورات المحتملة التي قد تقوم بها قبائل القزلباش في الأناضول في غيابه.

وفي تلك الأثناء، علِم الشاه "طهماسب" أن السلطان سليمان خرج في غزوة صوب بلاده برفقة شقيقه "القاص مِيرْزَا" وذلك حسبما أبلغه أمراء الولايات الحدودية مع الدولة العثمانية. فأُصيب بذعر وهلع شديدين لما وصلت إليه هذه الأنباء. وكان هذا الشعور الذي راوده في ذلك الوقت نابعٌ من احتمال صعود أخيه "القاص مِيرْزَا" إلى عرش إيران بدعم من الدولة العثمانية، أكثر من كونه كان خائفًا من سيطرة العثمانيين أنفسهم على إيران. حتى إن تلك المخاوف التي ساورت الشاه يمكن تأكيدها ببعض الروايات التي سردها المؤرخون العثمانيون حول "نية السلطان سليمان إسناد عرش إيران إلى القاص مِيرْزَا بعد القضاء على شقيقه طهماسب". وكان شاه إيران يذكر السلطان سليمان دائمًا بالتعظيم والتبجيل، وقد قرّر عدم مواجهة الجيش العثماني خوفًا من الدعم الذي يقدمه السلطان إلى شقيقه "القاص مِيرْزَا". وكان

يشير إلى السلطان سليمان في مذكراته دومًا بلقب "حضرة السلطان"، وكان يدّعى أنه خُدع من قبل وزراء البلاط العثماني وشقيقه. وهمّ الشاه "طهماسب" إلى حشد قوات جيشه، وعزم على تنفيذ بعض الإجراءات لعرقلة تقدّم العثمانيين نحو بلاده، ومن بين هذه الإجراءات: تدمير موارد الطعام والشراب والمياه في الأماكن التي سيعبر منها الجيش العثماني، وإرسال جواسيس القزلباش إلى الأناضول وتوجيههم لتحريض مناصريهم هناك لإحداث ثورات ضد الحكام العثمانيين لإرباك حركة الجيش التركي، وتشتيت ذهن قادته والهجوم بقواته على أراضي الأناضول من الخلف عندما يضطر الجيش العثماني لمغادرة الأماكن التي احتلها بعد معاناته من أزمة المؤن وظروف الطريق الوعرة. ويشرح مؤرخو الدولة الصفوية هذه الأوضاع بقولهم:

"أرسل الشاه بعضًا من رجاله إلى المعابر التي يمر منها الجيش التركي من تبريز وحتى حدود الدولة العثمانية حتى يحرقوا جميع المساحات المزروعة والحقول في تلك المنطقة. كما عمد سكان تبريز إلى غلق جميع عيون المياه وقنواتها، ولم يبقَ أي مورد مياه في تلك المنطقة. ووصل الشاه إلى هضبة آشقانبر، وبدأ في الانتظار هناك. وقد أرسل بعض قادته العسكريين إلى منطقة مرند الواقعة أقصى شمال غرب إيران".

ووصل السلطان سليمان من ولاية "سِيوَاسْ" إلى "أَرْضُرُومْ" في الشرق عبر طريق "صوشهري - أرزينجان - تيرجان". وأرسل خطابًا إلى الشاه "طهماسب" يدعوه إلى الحرب. وعندما وصل إلى منطقة "جُوبَانْ كُوبْرُو (*Çobanköprü*)" في ولاية "أَرْضُرُومْ"، ألقت قواته القبض على أربعة جواسيس صفويين أُرسلوا إلى الأناضول. وكان هؤلاء الجواسيس يحملون رسائل إلى قبائل القزلباش في ولايات "أَمَاسْيَا" و"بُوزُوقْ" و"سِيوَاسْ" و"توقات" تحرّضهم على الثورة ضد الدولة العثمانية. فأمر السلطان سليمان بإعدامهم على الفور، وبعث فرمانًا إلى ابنه الأمير مصطفى كي يتخذ المزيد من التدابير الاحترازية ضد ثورات القزلباش في الأناضول. وكان السلطان يطمح إلى إنقاذ ولاية "وَانْ" من أيدي الصفويين في البداية. ولذلك، عندما وصل إلى منطقة "عَادِلْجَوَازْ (*Adilcevaz*)"

عبر طريق "حسن قلعة - أرجيش (*Erciş*)"، أرسل حاكم أَرْضَرُومْ "عُلَمَا بَاشَا" وحاكم كرمان "رمضان أوغلو بِيرِي بَاشَا" لمهاجمة قلعة "وَانْ". وعندما أبان برهان علي سلطان عن رسالة السلطان سليمان في دولة "شيروان" أذعن الجميع للأمر، فأرسل خطابًا إلى السلطان يخبره بأن جميع مناطق "شيروان" تقدّم فروض الطاعة والولاء له، مما أدخل السرور إلى نفسه. وبينما كان السلطان يعتزم التوجّه صوب "وَانْ" بعد أن أرسل إليها كلًّا من "عُلَمَا بَاشَا" و"بِيرِي بَاشَا"، جاءه نبأ خروج جنود القزلباش إلى منطقة "كارافول"، فأمر بإرسال "القاص مِيرْزَا" وبعض من القوات العثمانية لردعهم. ووقعت معركة بين الجانبين عند مراعي مدينة "مرند" الإيرانية، وتقهقرت قوات القزلباش واضطرت للعودة إلى داخل إيران والرجوع إلى الالتحام بقوات الشاه من جديد.

وصل السلطان سليمان إلى مدينة "خوي" يوم ٢١ تموز/يوليو. ثم انتقل منها إلى منطقة "شنب غازان (*Şenb-i Gazan*)" يوم ٢٨ من الشهر ذاته، وأمر بإنشاء معسكره في ذلك المكان. وكان "القاص مِيرْزَا" عندما طرح على السلطان سليمان فكرة غزو إيران قد أبلغه بأن الشاه "طهماسب" هرب من تبريز، وأن أهالي تبريز ينتظرونه على أحرّ من الجمر. لكنه عندما وصل إلى تبريز لم يستقبله أحدٌ من أهلها، كما فرّ بعضٌ من رجال "القاص مِيرْزَا" هاربين ولجأوا إلى أخيه الشاه. وعلى الرغم من ذلك، دخل السلطان مدينة تبريز دون قتال. ويذكر بعض المؤرخين العثمانيين أن "القاص مِيرْزَا" نُصِّب على عرش إيران بصفته ملكها الجديد، ويشير البعض الآخر إلى أنه أُسندت إليه إدارة تبريز فقط. ولقد وجّه السلطان سليمان تعليمات تحذيرية مشددة لجنوده كي لا يتعرّضوا لأي شخص من أهالي تبريز. ولم يستسغ السلطان بعض التصرّفات غير اللائقة التي أقدم عليها "القاص مِيرْزَا" في تبريز مثل نهب قصر الشاه، ونفي الصُّنّاع والحرفيين إلى الأراضي العثمانية، وزيادة الضرائب بشكل كبير، وحتى تنفيذ مجازر ضد السكان المحليين. وقد أقام السلطان سليمان في تبريز خمسة أيام، وآثر بعدها العودة إلى "وَانْ" بعدما أدرك أن كارثة محققة ستقع إذا ما مكث مزيدًا من الوقت هنا بسبب نقص الغذاء والمؤن. وشهدت الفترة التي مكثها

السلطان في تبريز نفوق ٥ آلاف من الجياد والجمال التي كانت تخدم جيشه بعد أن اضطروا لأكل أوراق الشجر وقشورها لما ساءت حالتهم الصحية بسبب نقص العلف. فعانى الجيش العثماني من عدم وجود ما يركبه في طريق عودته إلى الأناضول. وبهذه الطريقة، أُجبر السلطان على إخلاء تبريز مجددًا في ثاني غزوة كبيرة يقوم بها إلى إيران (٢٣ جمادى الآخر ٩٥٥هـ - ١ آب/أغسطس ١٥٤٨م).

ووصل السلطان سليمان إلى "وَانْ" يوم ١٥ آب/أغسطس من العام نفسه، وأمر بإلحاق قوات الصدر الأعظم "رستم بَاشَا" بقوات "عُلَمَا بَاشَا" و"بِيرِي بَاشَا" اللذين يحاصران قلعة "وَانْ". وبدأت القوات مجتمعةً في تشديد القصف على القلعة. ولكن الشاه "طهماسب" كان قد حصّن القلعة بحصون منيعة، وجهّزها بالمدافع والذخائر والقذائف اللازمة للدفاع عنها. وكانت هذه المدينة تعتبر بوابة العبور إلى منطقة أذربيجان شمال غرب إيران، وكان الصفويون يؤمنون بأن هذه المدينة لن تسقط في أيدي الأعداء ما دام يحكمها أمراء منتسبون إلى الأئمة الاثني عشر. وبدأت القلعة في الاهتزاز في مواجهة قذائف المدافع العثمانية. وقد طلب الحاكم الصفوي المسؤول عن تأمين القلعة "جبني (*Çepni*) شاه علي سلطان" من القوات العثمانية مهلة يومين لتسليم القلعة بعد أن أدرك أنه لن يستطيع المقاومة طويلًا. لكن القيادة العثمانية لاحظت مبادرة المدافعين عن القلعة في ترميم أبراج القلعة التي تهدّمت جرّاء القصف وإدخال المياه إلى القلعة خلال هذين اليومين، فواصلوا قصفهم لها دون هوادة. وبعد مدة خرج بعض رسل المدافعين عن القلعة عبر حبال تدلّت من داخلها وهم يحملون أكفانهم على رؤوسهم، وذهبوا إلى "القاص مِيرْزَا" وطلبوا منه التوسّط لطلب الأمان من السلطان سليمان. وقد قبل السلطان طلبهم هذا، وغادروا المدينة، ليتمكّن السلطان سليمان بعدها من بسط نفوذه على القلعة يوم ٢٤ آب/أغسطس. وتحوّلت "وَانْ" إلى إمارة مستقلة، وعين السلطانُ أمينَ المالية "صاري (*Sarı*) إِسْكَنْدَرْ شلبي" واليًا عليها وخصص له مبلغ مليون قطعة فضية، وترك معه ٥ آلاف من الجند المتطوعين.

لم يقم السلطان سليمان طويلًا في "وَانْ"، وتحرّك صوب ولاية "ديار بَكْر" لقضاء فصل الشتاء بها. وعلم الشاه "طهماسب" في ذلك الوقت أن الجيش العثماني استولى على "وَانْ" وذهب لقضاء فصل الشتاء في "ديار بَكْر"، فسارع إلى التحرّك، وإرسال قوات حاشدة من جيشه إلى مناطق "أرجيش"، و"أخلاط"، و"عادلجواز". وقد تعرّضت قوة عثمانية تراوح قوامها بين ٣ - ٥ آلاف جندي إلى هجوم الجيش الصفوي بينما كانوا يقومون بترميم قلعة ولاية "قارس (*Kars*)" تحت إدارة رئيس "عثمان شلبي" وعلي بَكْ الذي مُنح لقب البَاشَاوية، وهو في الوقت نفسه شقيق "دُو الْقَادِرلي محمد خان". ونفّذت القوات الصفوية التي كان يقودها أكبر أبناء الشاه "إسماعيل مِيرْزَا" و"قاجارلي جوكجه سلطان" هجومًا مفاجئًا ضد القوات العثمانية، وهزموا الجنود العثمانيين المكلفين بحماية حوالي ٥ آلاف من عمال البناء ورؤسائهم الذين تم جمعهم من ولايات "أَمَاسْيَا"، و"توكاط"، و"سِيوَاسْ"، و"أَرْزِينْجَانْ"، و"أَرْضُرُومْ". ولم يتردد الجيش الصفوي في قتل الجنود العثمانيين الذين هرعوا للاحتماء بقلعة الولاية وطلبوا الأمان من القوات الصفوية. وعمدت القوات الصفوية إلى إحراق قلعة "قارس" وتدميرها، ولم يبق منها شيء إلا الخراب. بعدها بادرت قوات الشاه إلى تنظيم هجمات مشابهة على مناطق "باسين"، و"أَرْضُرُومْ"، و"بايبورت". وهمّت تلك القوات إلى إحراق وتهديم منازل ومساكن القرى والبلدات المتاخمة لمدينتيْ "عادلجواز" و"موش"، وارتكبت مجازر وحشية ضد أهالي منطقة "أخلاط". ولما وصلت أنباء قدوم طلائع الجيش العثماني، توجّه الشاه "طهماسب" صوب "أرزينجان" و"تيرجان"، وأمر جنوده بإضرام النيران في مدينة "أرزينجان". وقد أنشأ الشاه هناك قاعدة عسكرية لقيادة جيشه، وبدأ في عمليات القتل والنهب والسرقة في محيط تلك المنطقة. وفي ذلك التوقيت كان السلطان سليمان قد أرسل "القاص مِيرْزَا" إلى بغداد لتنظيم هجوم على مدينتيْ "قم (*Kum*)" و"كاشان (*Kâşân*)" الإيرانيتين، كما كلّف الوزيرَ الثالث أحمد بَاشَا بالتوجّه إلى "أرزينجان" للتصدّي لاعتداءات الشاه. وقد أرسل أحمد بَاشَا بدوره حاكم ولاية مالاطيا "عثمان بَكْ" برفقة ٧٠ جنديًا للخروج في حملة استكشافية،

وتحـرّكَ هو بقواته من بعده. وعبر "عثمان بَكْ" مدينة "كيماه (*Kemah*)"، وشـنّ هجومًـا ليليًـا مفاجئًـا علـى قوات الشـاه. وقام جيشـه بربط الأوانـي والمراجل النحاسـية التـي حصلـوا عليها مـن "كيماه" في ذيـول بعض الجيـاد، وأطلقوهم على جيش الصفويين محدثين ضجيجًا وضوضاء مفزعة. وقد شعر جنود الشاه بخـوف وهلـع شـديدين، وبدؤوا في اسـتلال السـيوف على بعضهـم البعض. ومـن ثـمّ انضمت هذه الكتيبـة العثمانية قليلـة العدد إلى هذا الصـراع، وبادروا بالهجـوم علـى الجنـود الصفوييـن المرتبكيـن. ومـا إن أشـرقت الشـمس، حتى شوهد الجيش الصفوي وقد تمزّق شرّ ممزّق. وعندما وصل أحمد بَاشَا بقواته فـي اليـوم التالـي لـم يجـد إلا خيـام الجنـود الصفويين خاويـةً. وفـي الواقـع، كان الشاه "طهماسب" وجنوده قد انسحبوا بسبب الفوضى العارمة التي اندلعت في تلك الأثناء ظنًّا منهم أن جيش السلطان سليمان قد وصل، وتوجّهوا صوب منطقة "قره داغ". ومن جانبه، عاد أحمد بَاشَـا، وأبلـغ السـلطان الذي وصل لتوّه إلى منطقة "بيرتك (*Pertek*)" هروب جيش الشاه.

لقد انطلق السـلطان سـليمان إلى "ديار بَكْر" بعد تلقّيه نبأ انسـحاب قوات الشاه، وأمر بتوزيـع جنوده على أماكن الإقامة لقضاء فصل الشتاء. وكان توزيـع الجنود لقضاء فصل الشتاء على النحو التالي: الوزير الثاني محمد بَاشَا في بغداد يرافقـه ١٥٠٠ جنـدي من الإنْكِشَـارِيّة، حاكـم الرُّومَلِي وجنوده فـي "ماردين"، حاكـم الأناضـول وجنوده في "أورفة". وأما السـلطان فقد انتقـل من "ديار بَكْر" التـي أقـام بها شـهرين إلى حلب لقضاء الشـتاء بهـا (٢٢ تشـرين الثاني/نوفمبر ١٥٤٨م). وبينمـا هـو مقيـمٌ في حلب أتـاه ابنه الأميـر "بايزيد"، وشـرع الاثنان في قضاء أوقاتهما في الخروج في جولات الصيد. وخرج السلطان حتى وصل إلى حماة، وتجوّل بتلك المنطقة. وقد أقام في حلب لمدة ستة أشهر.

وصـل "ألقـاص مِيـرْزَا (*Elkas Mirza*)" إلى مدينة "همـدان (*Hemedan*)" بصحبه ٥ آلاف فارس بعدما طلب من السـلطان سـليمان الإغارة على المنطقة القريبـة من "أصفهان"، وسـمح السـلطان له بذلـك. وقد ألحق "القـاص مِيرْزَا"

هزيمة بقوات أخيه "بَهْرَامْ مِيرْزَا" و"أوسطاجلو جراغ سلطان". ونهب خزائنهم وممتلكاتهم. وتقدّم بقواته حتى وصل إلى "قم" و"كاشان". وهناك اختطف "محمد بَكْ الأفشاري"، واحتلّ مدينة "قم". وحاصر مدينة "أصفهان"، وتقدّم حتى وصل إلى مدينة "شيراز" مركز بلاد فارس، ونهب ودمّر كافة المدن والقرى الواقعة على الطريق الموصلة إلى تلك المدينة. ولم يُهمِل "القاص مِيرْزَا" اختيار أفضل وأجود الأشياء التي اغتنمها، وأرسلها بواسطة "سيد عزيز الله الشيرواني" الذي كان يرافقه إلى السلطان سليمان الذي كان يقضي فصل الشتاء وقتئذ. وكان من بين تلك الأشياء كتب مكتوبة بعبارات رائعة، والأسلحة، وعطور المسك، والسجاد، والمجوهرات، ورسالة إلى السلطان. وقد أخبر "القاص مِيرْزَا" السلطانَ في هذه الرسالة أنه انتقم من الدمار الذي أحدثه الشاه "طهماسب" في ضواحي "أرزينجان". وأفضت هذه الهجمات التي شنّها "القاص مِيرْزَا" إلى دفع شقيقه الشاه إلى الخروج من مكان قضاء فصل الشتاء في "قاراجاباغ"، وتوجّهه صوب مدينة "قزوين" في محاولة منه لصدّ هجماته وحماية العراق من اعتداءاته. فأدّت هذه التحركات إلى انسحاب "القاص مِيرْزَا" إلى بغداد. وفي حقيقة الأمر، كان "القاص مِيرْزَا" لا يتورّع عن الإقدام على أعمال النهب والتخريب والحرق في كل مدينة كان يدخلها، وكان يتصرّف بفظاظة بالغة تجاه وطنه وشعبه.

وفي الوقت الذي أولى فيه السلطان سليمان اهتمامًا خاصًّا بالنظام والانضباط في تبريز حين فتحها، لدرجة أن جنوده "لم يروّعوا حتى دجاجة هربت من قنّها"، نجد أن "القاص مِيرْزَا" لم يتورّع عن ظلم أهل المدينة وتشريدهم وإشاعة المذابح بينهم. عندما انسحب "ألقاص مِيرْزَا" إلى بغداد، نزل إلى "كربلاء"، وزار ضريحيّ الإمامين "علي" وابنه "الحسين" ﷺ. وفُهم من ذلك أنه عاد مجددًا إلى اعتناق المذهب الشيعي. وقد أدّت هذه الحركة إلى سقوطه من نظر العثمانيين، وساءت علاقته بالصدر الأعظم. حتى إن الصدر الأعظم السابق "لطفي بَاشَا" -الذي ألّف كتابًا في التاريخ- يروي أن حاجب "القاص مِيرْزَا" بعد أن وجهت إليه بعض التهم أُعدم على الخُطّاف، مما هزّ كيان

هذا الأخير الذي كان مستاءً في الأساس من عدم تنصيبه على عرش إيران، كما كان منفعلًا بسبب إيفاد محمد بَاشَا إلى بغداد. وبينما كان السلطان سليمان يقيم في قصر "إيلمالي"، أرسل خطابًا وبعض الرجال إلى "القاص مِيرْزَا" يطلب منه المجيء للقائه، ففزع "القاص مِيرْزَا" من هذا الطلب، وتحجّج ببعض الحجج، ولم يلبِّ هذه الدعوة. ووجد نجاته في اللجوء إلى الأمراء الأكراد المتواجدين بجوار منطقة "شهر زور". ولقد احتمى "القاص مِيرْزَا" بقلعة "ميروان" الخاضعة لحكم "سُرهاب بَكْ" أحد قادة أكراد إمارة "إيرديلان". لكن شقيقه "بَهْرَامْ مِيرْزَا" ما إن علم بوجود أخيه في هذه القلعة، حتى حاصرها بقواته. وألقى "بَهْرَامْ مِيرْزَا" القبض على شقيقه "القاص مِيرْزَا"، وحبسه في قلعة "آلاموت" الشهيرة شرق بحر قزوين. ثم أُلقي من فوقها ومات بعد ذلك بعدة أيام.

وفيما كان السلطان سليمان في مدينة حلب جاءه خطابٌ من ملك شيروان "برهان". وقد أخبره برهان علي سلطان في هذا الخطاب أنه أحرق ودمر بعض المناطق مثل "جينجه"، و"قره باغ"، و"موجان"، و"تاليش". وفي الوقت الذي كان السلطان سليمان يقضي فصل الشتاء برفقة كتيبة من الجنود العثمانيين، واصل حاكم "وَانْ" إِسْكَنْدَرْ بَاشَا هجماته وغاراته على الأراضي الصفوية. فتحرّك هذا الأخير بقواته حتى وصل إلى "شوكورو سعد" أو "روان"، وشنّ هجومًا على "خوي"، واستولى على القلعة وقتل "دونبوللو حاجي بَكْ" الذي خدم الدولة العثمانية فيما مضى، ومن ثَمّ انضمّ إلى الصفويين. ولقد أدخل هذا النجاح السرور على السلطان سليمان، إذ استطاع إِسْكَنْدَرْ بَاشَا الاستيلاء على "خوي" خلال فترة وجيزة. لكن غزوة جورجيا شغلت عقول العثمانيين كثيرًا. وكانت جورجيا في ذلك الوقت يوجد بها ثلاث حكومات مستقلة. وكانت إحدى هذه الحكومات تُدار بنظام الإمارة، وأما الاثنتان الأخريان فتُداران بنظام الملكية. في الشرق نجد مملكة "كارتلي (*Kartli*)" وعاصمتها "تفليس"، وفي الغرب مملكة "إيميرتي (*İmereti*)" وعاصمتها "قوتايس (*Kutayis*)"، وأما على ضفاف نهر "شوروه (*Çoruh*)" سنجد دولة الإمارة أو "ساميشا (*Samtskhe*)" وعاصمتها "آهيسها (*Ahısha*)". وكانت هذه الأخيرة على وجه الخصوص في صراع دائم

مع الدولة العثمانية. ولقد اشتبك حكام هذه الإمارة مع حاكم ولاية أَرْضُرُومْ العثمانية "موسى بَاشَا" في وقتٍ كان السلطان سليمان فيه منشغلًا بغزواته في أوروبا، ونجحوا في قتله. وقد هُزم "موسى بَاشَا" -وهو أحد المنتسبين إلى بني "إسفنديار (*İsfendiyar*)"- في الغزوة التي شنّها على جورجيا، وقُتل وقُطعت رأسه. فهرع حاكم "ديار بَكْر" "علي بَاشَا الخادم" لدعم القوات العثمانية ضد الجورجيين، واستطاع تحقيق النصر عليهم. لكنه لم يتمكّن من إنقاذ "موسى بَاشَا" من بين أيديهم، واستطاع فقط الحصول على رأسه المقطوعة.

وفي شهر تموز/يوليو عام ١٥٤٨م كُلِّف حاكم أَرْضُرُومْ "تكلو محمد بَاشَا" بمهاجمة أراضي هؤلاء الأمراء الجورجيين إثر تصرّفاتهم العدائية ضد الدولة العثمانية. بغرض الانتقام من هذه الإمارة الجورجية النصرانية التي أعرضت عن البلاط العثماني، وولّت وجهها شطر الشاه "طهماسب"، وعمدت إلى قتل "موسى بَاشَا" حاكم أَرْضُرُومْ. وكان محمد بَاشَا قد دخل الأراضي الجورجية، وفرض حصارًا على قلعة "باراكان" يوم ١٦ آب/أغسطس عام ١٥٤٨م، ونجح في الاستيلاء عليها بعد معارك دامية، لا سيما وأن هذه القلعة المحصنة تقع في منطقة منحدرات صخرية. ثم بسط نفوذه على قلعة "كوميكا" بعد معركة حامية الوطيس. كما حوصرت قلعة "بينيك" وفُتحت هي الأخرى. وبعدها حوصرت حصون "بارناك (*Parnak*)" و"كورميك ساماجار (*Körmik Samagar*)"، و"آها (*Aha*)" وسقطت في أيدي العثمانيين. لكن الأمير الجورجي "كَيْخُسْرَوْ الثاني" (*Keyhüsrev*) استطاع استعادة بعض هذه القلاع بعد فترة كمنطقتيْ "نارمان (*Narman*)" و"بينيك (*Penek*)". حتى إنه احتلّ مقاطعة "ليفاني (بيرتيرك)، ووصل الجورجيون حتى حدود "إسبير". وبينما كان السلطان سليمان في طريقه من حلب إلى "ديار بَكْر"، وصله خبر هجوم أمراء جورجيا على مراعي "قره داغ". فأرسل الوزير الثالث أحمد بَاشَا على رأس حملة عسكرية إلى جورجيا. وتحرّك أحمد بَاشَا بتاريخ ٢٥ آب/أغسطس ١٥٤٩م يرافقه حكام وأمراء ولايات "أَرْضُرُومْ"، و"قارامان"، و"ذُو الْقَادِر"، و"روم"، ووصل إلى "أَرْضُرُومْ" يوم ٨ أيلول/سبتمبر من العام نفسه، وزوّد جيشه هناك ببعض المدافع

اللازمة لدكِّ حصون العدو. ثم سار بجنوده حتى وصل إلى قلعة "تورتوم" التي اتخذها الأمير الجورجي "كَيْخُسْرَوْ الثاني" مركزًا لغزواته نظرًا لتحصُّنها بشكل مُحكم، وحاصرها، وعمد إلى قصفها بالقذائف المدفعية على مدار اليوم حتى بدأت أسوارها في التهدّم. فاضطر حُماة القلعة لتسليمها في نهاية المطاف. وعيّن أحمد بَاشَا بعض القوات للدفاع عن "تورتوم"، ثم استكمل طريقه حتى فتح مدينتيْ "نيهاك" و"أميراهور". وقدِم الجيش بعد ذلك إلى منطقة "آقْجَه قلعة"، وتمكّن من بسط نفوذه عليها بعد معارك عنيفة. وعقب سقوط هذه القلعة في أيدي الجيش العثماني، أذعنت بعض القلاع الأخرى فيما بعد وقدّمت فروض الطاعة والولاء. وعليه، فقد استطاع العثمانيون فتح جميع المناطق الواقعة على طول نهر "تورتوم" من "نيهاك" وصولًا إلى قلعة "زخيك". ثم بسط أحمد بَاشَا سيطرته بعد ذلك على قلاع "كامهيس"، و"بينيسجرد"، و"أنزاف"، وسائر مناطق "آقجه قلعة". كما تمكّن من فتح ولاية "داف - إيلي" التي كانت تضمّ مناطق "أولتو"، و"تورتوم"، و"يوسف إيلي"، و"أردانوتش". وقُسّمت هذه المناطق إلى أربع مقاطعات، ودخلت ضمن النظام الإداري العثماني. وهذه المناطق هي مقاطعات "تورتوم"، و"آقجه قلعة"، و"غدير ليوانه"، و"كامهيس". وعُيّن أربعة حكام على هذه المقاطعات لإدارتها ومتابعة شؤونها.

وفي تلك الأثناء تحرّك السلطان سليمان من حلب متوجّهًا إلى إسطنبول (١٠ جمادى الآخرة ٩٥٦هـ - ٦ حزيران/يونيو ١٥٤٩م). لكنه عانى من مشكلة صحية قبيل وصوله إلى "ديار بَكْر". ولهذا السبب خلد إلى الراحة لفترة من الوقت في منطقة "قاراجاداغ". وعلى ما يبدو لم تكن مشاكله مع الصفويين والغزوة التي كان يدبّر لتنظيمها العام التالي سببًا في إقامته لفترة طويلة في حلب. وشهدت تلك الفترة ظهور علامات المرض الجدّية عليه. وكان السلطان قد أُصيب بمرض النقرس الذي سبّب له آلامًا مبرحة، وذلك بسبب إفراطه في تناول البروتينات، ما أفضى إلى تجمّع الدم وتبلوره داخل المفاصل. وكان خلوده للراحة في "قاراجاداغ (*Karacadağ*)" بسبب هذه الآلام. وقد أفادته الأجواء الحارة في تلك المنطقة وخفّفت آلامه ولو بشكل مؤقت.

وتعافى السلطان سليمان خلال فترة قصيرة أثناء إقامته في "قاراجاداغ". كما انتظر عودة الوزير أحمد بَاشَا من جورجيا هناك أيضًا. وبعد أن عاد أحمد بَاشَا من جورجيا يوم ٢٤ تشرين الأول/أكتوبر عام ١٥٤٩م، وتحسّنت حالته الصحية، انطلق السلطان سليمان من "ديار بَكْر" إلى إسطنبول. ولما وصل إلى ولاية "عانتب" أعلن لأمرائه وولاته أن رحلته قد انتهت، وأذن لهم بالعودة إلى ولاياتهم. وبعدها وصل إلى إسطنبول عبر طريق "آضَنَه - أولوقيشلا (*Ulukışla*) - قونيا" يوم ١ ذي الحجة عام ٩٥٧هـ (٢١ كانون الأول/ديسمبر ١٥٤٩م).

وبهذه الطريقة استطاع السلطان سليمان تأسيس ولاية "وَانْ" التي كانت تضمّ كذلك مدينة "هاكّاري" كنتيجة لغزوته الثانية إلى إيران. هذا إضافةً إلى استيلاء قادته على المناطق المجاورة لنهر "جوروه" الخاضعة لحكام جورجيا، وألحقها بإدارة دولته بعدما قسّمها إلى أربع مقاطعات. وفي الوقت نفسه استطاعت دولة "شيروان" الحصول على استقلالها -ولو لفترة من الزمن- بمساعدة الدولة العثمانية. وعبر بعدها بفترة "أوسطاجلو عبد الله خان" أراضي "شيروان" في إحدى سنوات خمسينيات القرن السادس عشر، وبينما كان يمرّ فوق نهر "كور"، كان حاكم شيروان برهان علي سلطان قد وافته المنية. وحينها تولّى الحكم في شيروان شخص يُدعى "مهراب" لم يستطع الصمود في مواجهة الصفويين، ففرّ هاربًا ولجأ للإقامة في جزيرة في بحر "الخزر". وأما "عبد الله خان" فقد كلّف بعضًا من رجاله بالعثور على قبر "برهان"، ولما وصلوا إليه قطعوا رأسه. ثم سار "عبد الله خان" إلى مدينة "شيماهي"، وساهم في إخضاع "شيروان" لسيطرة قبائل القزلباش من جديد.

مرض السلطان سليمان

وبعد أن عاد السلطان سليمان إلى إسطنبول، حتى بدأ في قضاء وقته في ولاية "أدِرْنَه" التي كان يخلد فيها للراحة ويبتعد عن قضايا الدولة المتعددة لفترات طويلة. لكن منذ عام ١٥٥٠م بدأ في الشعور بأن السن قد تقدّمت به، وربما بدأت أصعب أيام حياته حيث زاد عليه المرض واشتدّ. وكان يشعر

بالحاجة للخروج في غزوة جديدة تنسيه الفشل المرير الذي سيطر على غزوته الثانية إلى إيران. وقبل كل شيء، أمر ببناء جامع كبير وكلّية ملحقة به (٢٧ جمادى الأولى ٩٥٧هـ - ١٣ حزيران/يونيو ١٥٥٠م). وشارك بنفسه في مراسم وضع حجر الأساس لهذا الجامع، إذ وضع أول أحجار أساس ذلك الجامع شيخُ الإسلام "أبو السعود أفندي". واستمر بناء الجامع حتى عام ١٥٥٧م. لكن هذه الفترة شهدت ارتفاع حدّة التوتر والصراع الخفيّ بين أبنائه بسبب مرضه والبيئة النفسية التي تمخّضت عن جلوسه على العرش لفترة طويلة. وازداد نفوذ كلٍّ من "خُرّم سلطان" و"رستم بَاشَا" وحاشيتهما على السلطان سليمان. وأمّا هو فكان يفكّر في ابنه الأمير "سليم" كي يخلفه في الحكم. لكنه لم يكن ينوي التعرّض لعاقبة جدّه السلطان "بايزيد الثاني". وسعى لقيادة غزوتين كبيرتين في تلك الأثناء بنفسه على فترات متباعدة. وعلى الرغم من ذلك، فقد انتشرت أنباء تدهور حالته الصحية في كل الولايات، حتى إنها وصلت إلى مسامع أبعد منافسيه. وأشار "كاتارولو فيستي بوتشيا" في خطاب أرسله إلى القصر الإسباني إلى أن السلطان سليمان أصبح عصبيًا وحزينًا للغاية، موضحًا أن زوجته "خُرّم سلطان" تقوم بإعداد الأدوية المسكنة لتهدئته.

وأما الدبلوماسي البندقيّ "نافاجيرو (*Navagero*)" فيروي في تقرير أعدّه عام ١٥٥٣م أن معاناة السلطان الصحية ازدادت في الآونة الأخيرة بسبب مرض النقرس الذي ألمّ به، وأن أطباء القصر عاجزون عن إيجاد علاج لتسكين أوجاع السلطان، لكن في الوقت نفسه فإن حاشية القصر يبذلون جهدًا حثيثًا كي لا يسمع أحد بمرض السلطان. وفي الواقع، لم يكن لمرض السلطان علاج شاف. إذ إن الأدوية التي كان يصفها الأطباء للسلطان كانت من أجل تخفيف آلام المرض المبرحة. وبدأ مزاجٌ عصبي يسيطر على حالة السلطان سليمان مع مرور الوقت بسبب المرض. ويُفهم أن هذه الحالة النفسية التي كان يعيشها السلطان قد تحسنت واستعادت حيويتها مع تحوّل المنافسة بين أبنائه من السر إلى العلانية، هذا بالإضافة إلى التطورات التي كان يشهدها الغرب في ذلك الوقت. ويمكننا الحصول على معلومات حول أوضاع الإدارة في الدولة في تلك

الفترة إذا ما علمنا بالتقارير المؤرخة في عام ١٥٥١م التي تشير إلى أن السلطان سليمان لم يعد يعارض تدخل زوجته "خُرّم" في شؤون الدولة، وأنه أسند مهمة إدارة الأسطول إلى "سنان بَاشَا" شقيق زوج ابنته "رستم بَاشَا" بتأثير من "خُرّم" نفسها. وصار السلطان يؤثر السفر إلى "أدِرْنَه" لقضاء أوقاته في ممارسة هواية الصيد كلما شعر بالضيق جرّاء قضايا دولته. وقد جذبت الأحداث المندلعة في إقليم "أَرْدَلْ" انتباه السلطان وجعلته لا يفكّر بشيء سواها. لكن يمكن القول إنه كان يحصل على معلومات متعلقة بالأنباء القادمة من كافة مناطق وأقاليم دولته.

قضية إقليم "أَرْدَلْ"

كان السلطان سليمان على علم تام بأهمية إقليم "أردل (*Erdel*) / ترانسيلفانيا (*Transilvanya*)" من أجلِ أمنِ إمارة "بودا" في المَجَر. ولهذا السبب كان يتابع التطورات التي تحدث في هذا الإقليم عن كثب. وفي تلك الأثناء بدأت علاقة إمارة "أَرْدَلْ" مع آل "هابسبورج" تسوء بشكلٍ يهدّد اتفاق السلام الموقّع بين الطرفين عام ١٥٤٧م بسبب المكائد والمؤامرات التي كان يحيكها "مارتينوزي (*Martinuzzi*)" (فراتير جورجي (*Fráter György*) وتذكره المصادر التاريخية التركية باسم "باراتا (*Barata*)" الذي كان وصيًا على ملك أردل "يانوش سيجسموند (*Janos Sigismund*)". وكانت القوات العثمانية تسعى للحفاظ على أمن إمارة "بودا" في المقام الأول، وعليه فقد اضطرت للإقدام على تنفيذ حملة عسكرية جديدة على طول حدودها. وكما ذكرنا آنفًا حول خضوع "بودا" لسيطرة الدولة العثمانية، فإن الملكة "إيزابيلا" وابنها "يانوش سيجسموند" ذهبا إلى إمارة "أَرْدَلْ" ومدينة "ليبوفا". وكان هذه المدينة لديها مجلس يُسمى "توردا". وكان هذا المجلس هو صاحب الكلمة العليا في إدارة "أَرْدَلْ"، وقد أسهم هذا المجلس في نقل مركز الإمارة عام ١٥٤٢م إلى "بَلْغِرَاد - أردل". وبهذه الطريقة بدأت بذور استقلال المَجَر تُبذَر في أراضي "أَرْدَلْ" بشكل سرّي. وكان يرأس هذه الحركة القسّ "مارتينوزي". وقد نصّب هذا الأخير نفسه كنائب للملك الصغير (كوزيبرو). وقد شكّل "مارتينوزي" مجلسًا

مكونـا مـن ٢١ عضوًا من ممثلي المَجَريين والسـكليين والسكسـونيين من أهل "أَرْدَلْ". وبينمـا كان يقـوم بجميـع هذه الأمور، عمد "مارتينوزي" إلى ممارسـة بعـض الأعمال بغرض إلغاء السـيطرة العثمانية علـى "أَرْدَلْ"، وإلحاقها بأراضي آل "هابسـبورج"، وبالتالي المسـاهمة في احتلالهم الفعلـي للإقليم. ومن ناحية كان يـراوغ العثمانيين بخطاباته التي كانت تظهر حسـن نيتـه، ومن ناحية أخرى كان يبعث رسائل إلى "فرديناند" لإبلاغه بنيته الحقيقية، كما سعى لتوطيد علاقته به. وقد رغب "مارتينوزي" في تحرّك "فرديناند" لإخضاع الملكة "إيزابيلا" وابنها الملك الصغير لحمايته. وبعد كل هذه المحاولات، عقد "فرديناند" اتفاقًا سـرّيًا مـع بعض رجال الملكة "إيزابيلا" في شـهر أيلول/سـبتمبر عام ١٥٤٩م. ونصّ هـذه الاتفـاق على إخـراج إمـارة "أَرْدَلْ" وكافة الأراضي المتاخمـة لضفتيْ نهر "تيزا" من تحت أيدي العثمانيين ومنحها إلى آل "هابسبورج".

كان "مارتينـوزي" يؤمـن يقينًا بإمكانية تنفيذ بنود هـذا الاتفاق. وقد خطط فـي حالة انكشـاف هذا الأمـر لتحميل هذه التهمة لغريمه السياسـي "بيتروفيتش (*Petrovics*)" الـذي كان مـن أحد رجـال الملكة "إيزابيلا". ذلك لأنه شـعر بأن الملكـة بـدأت تدريجيًـا في الشـعور بالضيق والحـرج من تصرفاتـه، وأردل أن يحمّل غريمه "بيتروفيتش" فشل هذه اللعبة السياسية كي ينأى بنفسه عن أي تهم أو عقوبات توجّه إليه. وتسببت الوقائع التي شهدتها الحدود مع النمسا ونشوب اختلافات جديدة بسـبب التأخر في سـداد الضرائب السـنوية في تبادل السـفراء بين الجانبين. وبعد فشـل الطرفين في التوصل إلى اتفاق خلال الاجتماع الذي عُقـد في مدينة "جنجوش" المَجَرية، أرسـل السـفير العثماني "محمد شـاويش" إلـى فيينـا، وقد أبلـغ هذا الأخير السـلطان سـليمان لدى عودتـه بالتصريحات المثيرة للشـك التي أدلى به أرشـيدوق النمسـا حول إقليم "أَرْدَلْ". ولقد أحسّت الملكـة "إيزابيـلا" في تلـك الأثنـاء بالضيق من مكائـد "مارتينوزي"، وشـعرت أن عـرش ابنهـا يتعرّض للتهديد. فلم تتردد في إرسـال شـكوى إلى السـلطان سـليمان تشـتكي فيها "مارتينـوزي" وتطلب العـون منه لمواجهتـه. وعليه، فقد أرسـل إليها السـلطان خطابًا يبلغها بأنه يقدّر الأخبار التي أرسـلتها حول "أَرْدَلْ"

قبل ذلك في شهر حزيران/يونيو عام ١٥٥٠م، وأخبرها بضرورة الانتباه إلى وضعية "فرديناند" وتحرّكاته. كما طالب السلطانُ في هذه الرسالة من نبلاء الشعوب الثلاثة المقيمة في المَجَر (المَجَريون - السيكيليون - السكسانيون) بإبعاد "مارتينوزي" عن الحكم وتسليمه إلى العثمانيين، وأبلغهم بلهجة حادّة بضرورة عدم خضوعهم إلا للملكة "إيزابيلا" ورجلها الصدوق "بيتروفيتش".

وأما "مارتينوزي" فحاول فجأة تحريف الحقائق عبر إرسال الرسائل والخطابات إلى إسطنبول كي لا يبوء بغضب الدولة العثمانية عليه. ومن ناحية أخرى أخذ في مضايقة الملكة "إيزابيلا"، وكان يقول لها إن مصلحة ابنها لن تتحقق إلا بعقد اتفاق مع الإمبراطور "فرديناند". وفي نهاية هذه المحاولات، بادرت "إيزابيلا" بالإعراض عن الدولة العثمانية، ووقّعت اتفاقًا آخر مع "فرديناند" عام ١٥٥١م. وقد نصّ هذا الاتفاق على أن يدفع "فرديناند" مبلغ ١٠٠ ألف قطعة ذهبية إلى "إيزابيلا" كمهرٍ لخطوبة بنتٍ من بناته على ابنها "يانوش سيجسموند"، ويحصل هذا الأخير بموجب هذا الاتفاق على لقب وَالِي مدينة "أوبوله".

وقد وافقت "إيزابيلا" على هذه الاتفاقية، وانسحبت حتى مدينة "كاسا" الواقعة على حدود المَجَر. وأما "مارتينوزي" فكان يبلغ السلطان سليمان بأن الأخبار المتعلقة بدخول النمساويين المَجَر عارية تمامًا عن الصحة ولا أساس لها. بيد أن حاكم "بودا" كان يطلع السلطان على الأوضاع في المَجَر أولًا بأول. وعليه، فقد أرسل السلطان سليمان فرمانًا يخاطب به شعب "أَرْدَلْ" حمل تاريخ ١ تموز/يوليو ١٥٥١م. وأوضح السلطان في هذا الفرمان أنه أصدر تعليمات بالتحقيق في هذا الأمر إلى كلٍّ من حاكم الرُّومَلِي "سُوكُولَو محمد بَاشَا"، وقوات "أفلاق" ومولدوفا، وتتار منطقة "دوبروجا"، وخان القِرْم. وعندما تيقن السلطان من خيانة القسّ "مارتينوزي" واستيلاء آل "هابسبورج" على "أَرْدَلْ" ودخول قواتهم إلى الإقليم، استدعى سفير هابسبورج في إسطنبول "مالفيزي" إلى ديوانه، وطالبه بتوضيح الأمر حول هذا الشأن. فلم يعطه السفير جوابًا شافيًا، فأمر بإلقاء القبض عليه وإلقائه في السجن.

وشـهدت هذه الفترة وفاة حاكم "بُودَا" يحيى بَاشَـا زاده محمد بَاشَـا، فعُيّن "قاسـم بَاشَـا" خلفًا له. وأبلـغ هذا الأخيرُ السـلطانَ بأن آل "هابسـبورج" عمدوا إلـى تجهيز قواتهم العسـكرية، وأنشـأوا قلعة على الأراضـي العثمانية في مدينة "سـولنك" الحدودية. فأمر السـلطان بهدم هذه القلعة على الفور، وأرسل خطابًا إلـى "فردينانـد" يخبـره فيه أن شـروعه في إنشـاء قلعـة علـى أراضٍ تركية يعتبر مخالفًـا لمعاهدة السـلام الموقعة بينهما. وبعد هذا الخطاب، أرسـل "فردينانـد" خطابًا آخر إلى الصدر الأعظم "رسـتم بَاشَـا" برّر فيه التصرفات التي أقدم عليها خلال الوقائع التي شهدتها "سولنك" و"أَرْدَلْ"، وأعرب عن رغبته في ألّا تتسبب هـذه الأحـداث في ظهـور عداوة جديدة بيـن الدولتين. كما عبّـر "فرديناند" في هذا الخطاب عن أمله في إطلاق سراح سفيره من سجنه. فأما السلطان سليمان فلـم يلـقِ بالًا لهذه الحجج الواهيـة، وأقدم على تعيين حاكم "ديـار بَكْر" "علي بَاشَـا الخادم" واليًا على "بودا" خلفًا لـ"قاسـم بَاشَـا" الذي تصرّف بتراخٍ ملحوظ في التعاطي مـع قضية هدم قلعة "سولنك" التي كُلِّف بالاهتمام بها.

ومـا إن اعترت الحساسـية الأوضـاع القائمة في إقليـم "أَرْدَلْ"، حتى كلّف السلطان سليمان حاكم الرُّومَلِي "سُوكُولّو محمد بَاشَا" بشنّ هجوم على الإقليم. وانضمّ إلى قوات "سُـوكُولّو محمد بَاشَا" حكّام مقاطعتي "سيمنديرة" و"نيبولو". وكانـت مهمة حاكم "فيديـن" قيادة قوات إمارة "أفـلاق"، ومهمة حاكم "نيبولو" قيـادة قـوات إمـارة مولودفا من أجل السـيطرة علـى المناطق المحيطـة بمنطقة "دوبروجا". وأما "سُوكُولّو محمد بَاشَا" فقد تحرّك من صُوفْيَا يوم ١٠ تموز/يوليو عام ١٥٥١م. ولقد واصل "مارتينوزي" خططه الماكرة للمراوغة كما ذكرنا آنفًا، ونجح في تسيير أموره لفترة من الوقت. حتى إنه استطاع تأخير تحرّك "سُوكُولّو محمـد بَاشَـا" إلى "أَرْدَلْ". وكان "مارتينوزي" يرسـل الضرائب المسـتحقة على أقسـاط إلى البلاط العثماني، وكان يتحدث عن أن الوقائع التي تشهدها "أَرْدَلْ" هـي مـن صنيـع أشـخاص آخرين غيره. لكـن القائد العثماني "سُـوكُولّو محمد بَاشَـا" فطـن إلـى أن هذه الألاعيـب التي يقوم بهـا "مارتينوزي" لكسـب المزيد من الوقت، وقد جاءه أمرٌ بالسـير بجنوده من صُوفْيَا صوب بَلْغِرَاد. وعندما عبر

"سُوكُولّو محمد بَاشَا" وادي "سِيرَمْ" ووصل إلى منطقة "سلانكامين"، لحقت به قوات حكام مقاطعات "فيدين" و"نيبولو" و"سيمنديرة"، إضافةً إلى ألفيْ جندي من الإنْكِشَـارِيّة و١٥٠ مدفعًا أرسـلوا من إسطنبول. وكان يخضـع لأوامره أيضًا الجنود المغاوير التابعون لوالي بودا "علي بَاشَـا الخادم"، ووالي البُوسْـنَة "عُلَمَا بَاشَـا"، و"علـي بَكْ ميخائيـل أوغلو". وقد تحرّك "سُـوكُولّو محمد بَاشَـا" من "سلانكامين" يوم ٧ أيلول/سبتمبر عام ١٥٥١م، حتي عبر نهر الطُونَة بالقرب من مدينـة "بيترفأردليـن"، ودخل "أَرْدَلْ" عبورًا بنهر "تِيسَـا" بالقرب من قلعة "تيتل". ومـا إن وصـل إلى هنـاك، حتى حاصر قلعة "بيتشـة" بعـد أن تمركزت المدافـع والبنـادق التـي جلبتهـا السـفن العثمانية عبر نهـر الطُونَة، وبـدأت حصار القلعة بقصفهـا بنيران تلك المدافـع والبنـادق. وبعد ثلاثة أيام من الحصار المتواصل، اسـتطاعت القوات العثمانية الولوج إلى المدينة عبر الثقوب التي أحدثتها نيران مدافعهـم في أسـوار القلعة، ونجحـوا في الانتقال في كل شـوارع المدينة حتى بسطوا سيطرتهم عليها بالكامل. وبادر "سُوكُولّو محمد بَاشَا" إلى تكليف رجاله بترميـم أسـوار القلعة وحصونها، وعيّن حامية عليها. ثـم توجّه بعدها إلى مدينة "بيتشكيريك"، بعدها سار إلى مدينة "تشاناد" الواقعة على ضفاف نهر "ماروش". وقام قائد المدافعين عن القلعة من الصرب "فيرينك" بتسـليم مفاتيح القلعة إلى محمد بَاشَا. كما استطاعت القوات العثمانية بسط نفوذها على ١٢ قلعة في تلك المنطقة بالطريقة ذاتها.

توجّه "سُـوكُولّو محمد بَاشَـا" بعدها إلى مدينة "ليبوفـا". وكانت قلعة هذه المدينـة مـن أحصن القلاع وأقواها في "أَرْدَلْ"، وكان قائد تلك المدينة شـخص يدعـى "بيتو يانوش" وتحت إمرته قوة عسـكرية قوامهـا ٢٠ ألف جندي. وبينما كان محمـد بَاشَـا فـي طريقه إلـى "ليبوفا"، اشـتبكت قوة استكشـافية من العدو مـع قـوة استكشـافية عثمانيـة، فهُزمت قـوات العدو، واسـتطاع مـن نجا منهم الهـروب إلى القلعـة وإبلاغ قائدهـا بضخامة القـوات العثمانيـة. وأدرك حينها القائد "بيتو يانوش" أنه لا فائدة من مقاومة القوات العثمانية، ففضّل الانسـحاب بقواتـه إلـى مدينة "تيميشـوارا". وأدّى ذلـك الوضـع إلى استسـلام أهل المدينة

وتسليمهم القلعة إلى الجيش العثماني مع قبول دفع جزية إلى الدولة العثمانية. وعمد "سُوكُولّو محمد بَاشَا" إلى إسناد إدارة المدينة إلى "عُلَمَا بَاشَا" يرافقه ٥ آلاف فارس ومائتان من جنود الإِنْكِشَارِيّة لتأمين المدينة. وبعد أن سقطت مدينة "ليبوفا" بسهولة في أيدي العثمانيين، تحرّك محمد بَاشَا على رأس جيشه إلى مدينة "تيميشوارا" التي تعتبر مركز إقليم "بانات" غرب رومانيا. وكانت هذه المدينة تضمّ قوة عسكرية ذات عدد كبير مدعوم بالضباط والجنود المسلحين بالبنادق من الألمان والإيطاليين والإسبانيين. وبعد أن وصل محمد بَاشَا إلى مشارف المدينة، أمر جنوده بتثبيت مدافعهم أمام قلعتها، وأمطرها بوابلٍ من القذائف المدفعية. لكن العدو استطاع الصمود في وجه القوات العثمانية بفضل مساعدة العوامل الجوية غير المواتية له. فالأمطار الغزيرة ملأت جنبات المكان. ولم يقوَ الجيش العثماني على مقاومة قوات العدو في ظلّ الأجواء الباردة والأمطار الغزيرة. وفي نهاية الأمر، قرّر محمد بَاشَا رفع الحصار عن القلعة والانسحاب على أن يأتي على رأس حملة عسكرية جديدة بحلول فصل الربيع. فعرض الأمر على السلطان. وجاءه أمرٌ من السلطان بالانسحاب والإقامة في بَلْغِرَاد.

وبينما كانت القوات العثمانية منشغلة بحصار مدينة "تيميشوارا (*Temeşvar*)"، دخلت قوة عسكرية ضخمة من آل "هابسبورج" إقليم "أَرْدَلْ"، وبدأت في حصار قلعة مدينة "ليبوفا (*Lipova*)" (٤ تشرين الأول/أكتوبر). وكانت القوة العثمانية المتمركزة في "ليبوفا" بقيادة "عُلَمَا بَاشَا" عبارة عن ٥ آلاف جندي. وكان القسّ "مارتينوزي" يرافق القائد النمساوي "كاستالدو" أثناء حصاره لقلعة "ليبوفا". وقد ترقّى "مارتينوزي" إلى منصب الكاردينالية عرفانًا بالإنجازات التي حققها في "أَرْدَلْ".

وشرع "عُلَمَا بَاشَا" في الدفاع عن "ليبوفا" أمام جيش "هابسبورج" المكون من قوات ألمانية وإسبانية وإيطالية ومجرية. وشهدت المدينة اشتباكات عنيفة بين الطرفين، ولم يستطع الجيش العثماني قليل العدد الصمود طويلًا

في مواجهة جيش النمسا الجرّار حيث استشهد ٣٥٠٠ جندي عثماني أثناء الاشتباكات. وآثر "عُلَمَا بَاشَا" وقتها الانسحاب إلى داخل قلعة المدينة برفقة ١٥٠٠ من جنوده. وبدأ جيش النمسا في نهب مدينة "ليبوفا" وسرقة خيراتها، وفرض حصارًا على قلعتها. وفي الواقع، لم يكن العثمانيون يتوقعون بينما كانوا يستولون على "ليبوفا" أن يستهدف جيش "هابسبورج" هذه المدينة في البداية، ولهذا لم يفكّروا في تزويدها بالمؤن والحاجيات الأساسية اللازمة لأهلها وللقوات المدافعة عنها. وللسبب ذاته نفدت مؤن القوات العثمانية بالمدينة سريعًا. فأدرك "عُلَمَا بَاشَا" حينها أن الوضع سيسوء مع مرور الوقت، فعرض على القائد النمساوي "كاستالدو" الهدنة لمدة عشرين يومًا بتاريخ ١٦ تشرين الأول/أكتوبر ١٥٥١م. وجاء في العرض الذي قدّمه "عُلَمَا بَاشَا" أن تخرج القوات العثمانية بعد العشرين يومًا من القلعة، وتتوجّه صوب الحدود من دون التعرّض لها بأي أذى. وفي حالة قبول قائد الجيش النمساوي بهذا العرض، فإن الجيش العثماني سيسلّم قلعة "ليبوفا".

ولقد لعب القسّ "مارتينوزي" دورًا محوريًّا في إقناع قائد جيش "هابسبورج" بقبول هذا العرض العثماني. ولم يستطع "مارتينوزي" الحصول من آل "هابسبورج" على وعد أكثر من تولّي إدارة إحدى الولايات. ولقد طمح إلى استغلال هذه الوضعية الحرجة، ورغب في تنفيذ هذه الطموحات عبر إبرام اتفاق مع الدولة العثمانية. وبدأ في التواصل سرًّا مع "عُلَمَا بَاشَا"، وظنّ أنه سينال عفو السلطان سليمان إذا ما أظهر تأييده للمصالح العثمانية في المنطقة. وكانت مساعيه في خروج "عُلَمَا بَاشَا" والقوات التركية من "ليبوفا" من دون أذى ستعطيه فرصةً على طبق من ذهب في هذا الشأن. كما أنه قد حصل على وعدٍ من "عُلَمَا بَاشَا" بخصوص هذا الطلب. وتنفيذًا لبنود الاتفاق المبرم بين الطرفين، غادر "عُلَمَا بَاشَا" بعد انقضاء مدة الهدنة مدينة "ليبوفا" يوم ٥ كانون الأول/ديسمبر ١٥٥١م. حتى إن "مارتينوزي" أخبر "عُلَمَا بَاشَا" بأن قوة نمساوية قد نصبت فخًّا للقوات التركية وهي في طريقها للانسحاب. فأخذ القائد التركي هذا التحذير على محمل الجدّ، واجتهد في تفادي الاشتباك مع قوات "هابسبورج"

وهو في طريقه، إلا أنه تعرّض لهجوم مباغت من وحدات من الجيش النمساوي على إحدى ضفاف نهر "تاميش"، مما شكّل تناقضًا ملحوظًا لما اتفق عليه مع قائد جيش "هابسبورج". وقد أُصيب "عُلَمَا بَاشَا" في هذه المعركة، واستطاع أن ينجو بنفسه وبصحبته ٣٠٠ جندي من قواته.

ولقد اعترى الشكُّ القائد النمساوي "كاستالدو" من تصرّفات "مارتينوزي" المريبة، وأحسّ بالريبة والقلق من تواصله مع القائد العثماني "عُلَمَا بَاشَا" خِلسةً. فهمّ إلى تقصي الأمر، ثمّ بادر إلى إرسال أنباء حول هذا الصدد إلى "فرديناند". وبعد أن أجرى التحقيقات اللازمة حول نشاط "مارتينوزي"، علم "كاستالدو" أنه متآمر مع العثمانيين ويتخابر لصالحهم، كما وصلته خطابات تؤكّد هذه الشكوك. وعليه، فكّر القائد النمساوي وقتها جديًا في التخلص من "مارتينوزي". وفي نهاية المطاف، دخل أحد الجنود إلى غرفة الدير الذي يعمل به "مارتينوزي" يوم ١٨ كانون الأول/ديسمبر ١٥٥١م بحجة طلب التوقيع على بعض الخطابات، وقتله بعدّة طعنات بالسكين وهو جالس على مكتبه.

وبعد أن استولى "كاستالدو" على مدينة "ليبوفا"، سار بجيشه نحو مدينة "زيجيد" جنوب المَجَر للاستيلاء عليها هي الأخرى. وقد شنّت قوة نمساوية قوامها ١٠ آلاف من الجنود ورجال الميليشيات التي كان يُطلق عليها اسم "هايدوك"، هجومًا على مدينة "زيجيد" بقيادة قائد حاميتها الأسبق "توث ميخلاي" عشية يوم ٢٨ شباط/فبراير عام ١٥٥٢م. واستطاعت هذه القوة السيطرة على ضواحي المدينة الخارجية بفضل هذا الهجوم المباغت. فاضطر حاكم مدينة "زيجيد" "ميخال زاده (*Mihalzâde*) خضر بَكْ" للانسحاب بقواته إلى داخل قلعة المدينة، وبعث رسالة إلى حاكم مدينة "بودا" يطلب منه العون. ولقد وصلت أنباء هذه الأوضاع إلى "سُوكُولُو محمد بَاشَا"، فتحرّك على الفور، وأرسل حاكم سيمنديرة "قاسم بَاشَا" بقواته على الفور لنجدة مدينة "زيجيد". وكان أسرع من وصل إلى نجدة مدينة زيجيد هو وَالِي بودا "علي بَاشَا الخادم". وشنّ "توث ميخلاي" هجومًا على القلعة بعدما سيطر على المدينة بغزو مفاجئ،

إلا أنـه اضطـر للانسـحاب مرة أخـرى أمام حركـة مباغتة قام بهـا "خضر بَكْ".

ثـم بعد ذلـك رأى قائد قـوات العدو جنودَ وَالِـي "بودا" أمامه، فسـحب جنوده إلى مشـارف المدينة، واسـتعد للقاء قوات "علي بَاشَـا الخادم". ووقعت معركة دامية بين الطرفين على مشارف مدينة "زيجيد". وألحقت القوات العثمانية هزيمة قاسـية بقوات القائد "توث ميخلاي"، مما دفعه للتخلّي عن ٥ آلاف من جنوده فـي ميدان المعركة، ونجا بنفسـه بشـقّ الأنفس مـن بين أيدي الجنـود الأتراك. وقد فرّ هاربًا من ميدان المعركة، وعبر نهر "تِيسّـا" سـباحةً، وتوارى عن الأنظار. وبعد أن حقق "علي بَاشَـا" هذا النصر الكبير على قوات العدو، كافأه السـلطان سليمان بإتحافه بهدية عبارة عن سيف وقفطان.

وبعد أن عاد "سُـوكُولّو محمد بَاشَـا" إلى بَلْغِرَاد، أردل السـلطان سـليمان إيجاد حل لقضية إقليم "أَرْدَلْ"، ولهذا عيّن الوزير الثاني "قارا أحمد بَاشَـا" قائدًا على المَجَر. وانطلق أحمد بَاشَـا من "أَدِرْنَه" يوم ٢٢ نيسـان/أبريل عام ١٥٥٢م ويرافقـه قـوة من الجنود والمدافـع. وفي تلك الأثناء، تعرّض "حمزة بَكْ" حاكم إمـارة "سـيكش فهيرفار" لهجوم مـن قادة مدينة "فسـبريم (*Vesprim*)" بينما كان فـي طريقـه لمكان عمله بصحبة مائتي فارس، وسـقط أسـيرًا فـي أيديهم. وكان جزءٌ كبيـرٌ من مدينة "فسـبريم" قد أُنشـئ على ربـوةٍ عالية. وعندمـا وصل هذا النبأ إلـى وَالِي بـودا "علي بَاشَـا الخادم"، توجّـه على رأس قواته إلى مشـارف "فسـبريم" فـي الأول من نيسـان/أبريل، وبـدأ في قصفها بقذائـف المدافع على مدار عشـرة أيام متواصلة. وقد انضمّ إلى صف القوات العثمانية بعضٌ من قادة حاميـة المدينة، وبدأت مفاوضات الاستسـلام تجري مع سـائر القادة الآخرين الموجوديـن بالقلعـة. وبينمـا الأمـر كذلـك، دخلت القـوات العثمانيـة المدينة واستولت عليها. وكلّف "علي بَاشَا الخادم" القائد "جعفر بَكْ" بتولّي أمر الدفاع عن مدينة "فسبريم"، وأَسَرَ القائد النمساوي، واصطحبه برفقته.

ما إن وصلت هذه الأنباء إلى الوزير الثاني "قارا أحمد بَاشَا"، حتى قدِم إلى بَلْغِرَاد يوم ١٥ أيار/مايو، والتقى مـع "سُـوكُولّو محمد بَاشَـا" الذي قضى فصل

الشتاء بالمدينة ذاتها. وتحرّكت قوات القائدَيْن حتى وصلت إلى مشارف مدينة "تيميشوارا" يوم ٢٧ حزيران/يونيو عام ١٥٥٢م. وبعد أن أعدّوا العدّة اللازمة لمحاصرة قلعة المدينة، بدؤوا في فرض الحصار على القلعة بعد أن ثبّتوا مدافعهم في الأماكن المناسبة. وكانت حامية القلعة المحصنة بالكامل تحت قيادة "لوسونزي إيستفان". وكانت حامية المدينة تردّ على هذا القصف العنيف بقصف مماثل وإطلاق نار من بنادق جنودها. ويذكر المؤرخ العثماني "جلال زاده" أن حامية القلعة كانت تمطر الجيش العثماني بوابلٍ من قذائف المدفعية وطلقات البنادق كالسيل المنهمر. كما أنهم كانوا يسارعون في ترميم الحصون والأسوار التي دكّتها المدافع العثمانية. وكان أحمد بَاشَا و"سُوكُولّو محمد بَاشَا" يتجوّلان بالمنطقة المحيطة بأسوار القلعة ويتابعان إجراءات حصارها بُغية تحفيز جنودهما والحفاظ على حماستهم على خلفية طول أمد الحصار مع مرور الوقت لمقاومة العدو مقاومةً لا يُستهان بها. وبينما الأمر كذلك أُصيب الجواد الذي كان يمتطيه محمد بَاشَا بقذيفة مدفعية، إلا أن هذا الأخير لم يتأثر بتلك الواقعة، وامتطى جوادًا آخر وواصل جولاته التفقدية حول وحدات المدفعية في جيشه لرفع الروح المعنوية لجنود الجيش العثماني. وقد أفضى القصف المدفعي الشديد إلى حدوث شقوق وفتحات في أسوار القلعة. لكن أحمد بَاشَا فطن إلى أنه لم يحن الوقت بعد للهجوم، فاتخذ قرارًا بالتأنّي وعدم التسرع والإقدام على خطوة كهذه. إلا أن هذا القرار لم يلقَ ترحيبًا من قادة جيشه الذين بدأ صبرهم ينفد. ومن دون صدور أمر بالهجوم من قيادة الجيش العثماني، أمر قادة الوحدات جنودهم بشنّ هجوم فوري على القلعة. لكن هذا التسرّع في الهجوم تمخّضت عنه نتائج كارثية، إذ استشهد في هذا الهجوم المباغت ألفان من جنود العثمانيين، كما لقي "مصطفى بَكْ" حاكم مقاطعة "نيبولو" حتفه هو الآخر. وفي أعقاب تلك الواقعة، وصل حاكم الأناضول "حسن بَاشَا" وبصحبته المؤن اللازمة للجيش. وقد قوّت هذه المساعدات عزيمة الجيش العثماني المحاصر للقلعة، ومنحته أملًا جديدًا في النصر.

وأما "حسن بَاشَا" فقد تعرّض لهجوم من قبل قوات العدو وهو يسير في طريقه، إلا أنه استطاع تفريقهم والوصول بسلام وأمان إلى مركز قيادة الجيش العثماني. وفي مقابل ذلك، استطاع العثمانيون إفشال محاولة أقدم عليها "توث ميخلاي (*Toth Mihaly*)" قائد حامية مدينة "سيجيدين (*Segedin*)" لجلب المؤن والمساعدات إلى المدافعين عن القلعة. فقد لحقت به هزيمة نكراء من القوات العثمانية بينما كان في طريقه للتقدّم حتى مياه نهر "ماروش" بقصد مباغتة القوات العثمانية من الخلف وإيصال الدعم اللازم إلى حامية القلعة، وسقط ابنه أسيرًا في أيدي العثمانيين، بينما تمكّن هو من النجاة بنفسه بشقِّ الأنفس.

وفي يوم ٢٥ تموز/يوليو شهدت القلعة أعتى هجوم شُنّ عليها. فقد وجّهت القوات العثمانية هذا الهجوم إلى أقوى حصن من حصون القلعة بعد أن تحوّل إلى مكانٍ خرب بتأثير مدافع الجيش العثماني. وكان هذا المكان يُطلق عليه اسم "برج الماء". وتعرّضت القوات العسكرية لكلا الجانبين لخسائر فادحة في هذه المعركة. وعلى الرغم من ذلك، فشلت القوات العثمانية في اقتحام المدينة مجددًا. وعادت القوات العثمانية لشنّ هجوم مماثل في اليوم التالي، واستطاعت الاستيلاء على برج الماء. ولقد هزّت هذه الهزيمة وسقوط حصون القلعة في أيدي العثمانيين كيان حامية المدافعين عنها. وعليه، اتخذ قائد القوة المدافعة عن القلعة قرارًا بالاستسلام بضغط من جنوده، وأخبر القيادة العثمانية باستعدادهم لتسليم القلعة شريطة إطلاق سراحِ حاميتها من دون مضايقات. وعندما خرجت حامية القلعة من داخلها، عمد كلٌ من "سُوكُولّو محمد بَاشَا" و"قاسم بَاشَا" إلى إحاطة أفرادها لحمايتهم من غضب الجنود العثمانيين. إلا أن أحد جنود الإنْكِشَارِيّة أقدم على التعرّض لأحد خوادم "لوسونزي" الذي كان يحمل درعه الذهبي مع حقيبة أو خوذة، فبادر "لوسونزي" بضربه بسيفه، كما ضرب حاجب الأمير التركي الذي حاول تهدئة الأوضاع في رأسه، فتبدّلت الأوضاع إلى حالة من الهرج والمرج. فأُحضر "لوسونزي" الذي أُصيب بجروح بالغة لمقابلة أحمد بَاشَا، فاتهمه أحمد بَاشَا بالخيانة، فردّ قائلًا:

"ماذا أفعل؟! الشعب لم يتركني وشأني، وقد كنت أقسمت على أن أموت معهم. وإلا لكان رجال كثيرون من جنودكم قد قُتلوا حتى تستولوا على تيميشوارا".

وبعدها أدرك أحمد بَاشَا أن نسبة شفاء "لوسونزي" من جراحه شبه معدومة، فأمر على الفور بإعدامه. وقد ساهمت السيطرة على مدينة "تيميشوارا" إلى سقوط المزيد من القلاع المجاورة في أيدي العثمانيين. وكانت قلعة "ليبوفا" من ضمن هذه القلاع. كما استسلمت مدينة "لوغوج" للجيوش العثمانية. وقد بسطت القوات العثمانية سيطرتها كذلك على عدد من القلاع الصغيرة والكبيرة في تلك المنطقة. وبهذه الطريقة خضعت أراضي إقليم "بانات" بالكامل للنفوذ العثماني. وقد عيّنت الإدارة العثمانية ولاةً وحُكّامًا على هذه المدن، واستحدثت نظام الإمارات، ونُصّب "قاسم بَاشَا" أولًا حاكمًا على ولاية "تيميشوارا".

وفي الوقت الذي كان فيه "قارا أحمد بَاشَا" يقوم بحملته العسكرية، كان وَالِي بودا "علي بَاشَا الخادم" يهاجم قلعة مبنية على ربوة عالية يُطلق عليها اسم "دريجيلي (*Dregely*)". واستطاع قائد القلعة "زوندي جورجي" الصمود في مواجهة القوات العثمانية إلى نهاية المطاف. وبعد أن سقط قتيلًا برصاصة أصابته خلال الاشتباكات بين الجانبين، وقعت المدينة في يد الجيش العثماني. وأمر "علي بَاشَا الخادم" بدفن جثمان هذا الرجل الذي دافع عن المدينة باستماتة أسفل القلعة، وثبّت على قبره حربةً ورايةً عرفانًا منه وتقديرًا لشجاعته المتناهية. ثم سار "علي بَاشَا الخادم" إلى مدينة "سيزسني (*Szecseny*)" واستولى عليها بسهولة ويسر. وكان في تلك الأثناء "يحيى بَاشَا أرسلان بَكْ" حاكم مدينة "سيكشفهيرفار" قد هاجم بقوة قوامها ألفا جندي قلعة تُسمى "سالجو (*Salgo*)" واستولى عليها بحيلة ماكرة؛ إذ جلب عروق الأشجار السميكة وثبّتها أمام القلعة على هيئة مدافع، فظنّت حاميتها أن هذه العروق عبارة عن مدافع ضخمة، وسلّمت القلعة بشرط الخروج منها من دون أذى. ثم نجح "أرسلان بَكْ" في الاستيلاء على عدد من القلاع الأخرى مثل "صاج (*Sag*)"، و"جيورمات (*Gyurmat*)"، و"بوجاك (*Bujak*)". وقد شهدت هذه الفترة وقوع

اشتباك عسكري بين "علي بَاشَا الخادم" وقوة من جيش "هابسبورج" قوامها ٧ آلاف جندي في وادي "بالاست". وكان يقود هذه القوة النمساوية "إيراسموس تويفل" أحد قادة "فرديناند" العسكريين. والتقى الجيشان التركي والنمساوي في معركة دامية بالقرب من قلعة "فولك" يوم ١١ آب/أغسطس عام ١٥٥٢م. وقد تكبّد جيش "هابسبورج" خسائر فادحة في هذه المعركة. واستطاع "علي بَاشَا الخادم" بسط نفوذه على قلعة "فولك" بعد هذا الانتصار، وأسر أفراد الحامية المدافعة عن القلعة ومن بين هؤلاء الأسري القائد النمساوي "إيراسموس تويفل". ونُقل الأسرى الذين كان يبلغ عددهم ٤ آلاف شخص إلى مدينة "بودا". وأما "تويفل" فقد نُقل إلى إسطنبول. ثم بعدها شنّ "علي بَاشَا الخادم" هجومًا على قلعة "سولنوك"، واتحدت قواته بقوات "قارا أحمد بَاشَا" أمام تلك القلعة. وحاصرت القوات العثمانية قلعة هذه المدينة التي كانت تقع عند نقطة تقاطع نهريْ "زاجيفا" و"تِيسَا" وبالقرب من ضفاف هذين النهرين. وكان يدافع عن هذه القلعة قوة عسكرية قوامها ٣ آلاف جندي مسلح و٣٦ مدفعًا، بالإضافة إلى كميات كبيرة من الذخيرة، إذ حصّنها النمساويون تحصينًا جيدًا لحمايتها. وكان قائد حامية الدفاع عن القلعة شخص يُدعى "لوران نياري". ولم يكن هذا الرجل قادرًا على الحيلولة دون نشوب خلافات بين الجنود الألمان والبوهيميين والمَجَر المدافعين عن القلعة، كما لم يجرؤ على مقاومة القوات العثمانية الغازية. وفي الوقت الذي بادر أفراد حامية القلعة إلى الهرب من أمام القوات العثمانية على أفواج، فشل قائد الحامية في إيجاد طريق للهرب هو الآخر، وأُلقي القبض عليه وأُحضر لمقابلة القائد العثماني أحمد بَاشَا (٤ أيلول/سبتمبر ١٥٥٢م). وبهذه الطريقة استطاعت القوات العثمانية السيطرة على قلعة "سولنوك". ولقد لعب نجاح العثمانيين في الاستيلاء على تلك القلعة دورًا كبيرًا في تشجيعهم على التقدّم والسير نحو قلعة "أيري". وكانت هذه القلعة تتمركز في موضع في غاية الأهمية، وكان يُطلق عليها من قبل المَجَريين اسم "إيجير"، واللاتينيين اسم "أجريا"، والألمان اسم "أيرلاو". وكان مؤسس دولة المَجَر "إيستيفان" قد أنشأ أسقفية في هذه المدينة.

وصل "علي بَاشَا" إلى مشارف قلعة المدينة يوم ٩ أيلول/سبتمبر عام ١٥٥٢م، وبدأ في استعداداته لحصارها. وأرسل أحمد بَاشَا خطابًا إلى قائد القلعة "دوبو إيستيفان (*Dobo Istvan*)" يطلب منه تسليمها، إلا أن هذا الأخير لم يردّ على هذا الخطاب، وحبس الرسول. وبدأ حصار مدينة "أيري (*Eğri*)" بقصف مدفعي لأسوار قلعتها بأربعة مدافع ثبّتها "أرسلان بَكْ" حاكم "سيكشفهيرفار" في موقع قريب من ضواحي المدينة. وبينما كانت قوات "علي بَاشَا" تشرع في حصار المدينة، وصل أحمد بَاشَا إلى المدينة، وأقام خيمته برفقة "سُوكُولّو محمد بَاشَا" عند موقع "أجيديوس (*Aegidius*)" الواقع عند وادي نهر "إيجير" (١١ أيلول/سبتمبر ١٥٥٢م). وبهذه الطريقة اشتدّ الحصار على قلعة المدينة بفضل تثبيت المدافع الكبيرة التي جلبها أحمد بَاشَا على التلال العالية المسيطرة على أغلب نواحي المدينة. ودافعت قوة عسكرية قوامها ألفا جندي من حامية القلعة عن المدينة باستماتة بقيادة "دوبو إيستيفان (*Dobo Istvan*)" ضد القوات التركية. كما شارك أهالي المدينة في الدفاع عن القلعة.

وقد أحدثت المدافع العثمانية خسائر كبيرة في أسوار القلعة التي بدأت تتداعى، فهمّ المدافعون عنها لترميمها وتحصينها مستخدمين البراميل المليئة بالرمال والملاط وغيرها من مواد البناء الأخرى. كما أنهم كانوا يحمونها بعناية عن طريق نشر قطع القماش والجلود المبللة على مخازن المؤن. وفي المقابل لم تكتفِ القوات العثمانية بقصف القلعة بالقذائف المدفعية، وبدأت في حفر الخنادق، ومحاولة فتح بعض القنوات حولها. وقد فشل هجومٌ شامل شنّته القوات العثمانية على القلعة يوم ٢٩ أيلول/سبتمبر. كما تكرّر هذا الهجوم بعدها بثلاثة أيام ولكن دون فائدة، وخسرت القوات العثمانية في هذه الهجمات ٨ آلاف جندي. وقد أدّت قذائف المدافع العثمانية إلى تدمير خزانات البارود الخاصة بقوات حامية الدفاع، مما نتج عنه معاناتهم من نقص البارود. إلا أن عزيمتهم عن الدفاع عن القلعة لم تفتر على الرغم من كافة هذه الصعاب. ونجحوا حتى في تدمير الأبراج التي صنعتها القوات العثمانية بالقرب من أسوار القلعة لعبورها ودخول القلعة. ومع طول حصار القلعة، اضطرت القوات

العثمانيـة لمكافحـة الظـروف الطبيعيـة والأحـوال الجوية الصعبـة، إلى جانب صمود حامية القلعة. ذلك لأن موسم الشتاء قد حلّ، وبدأت الأمطار والثلوج تهطـل. فأدرك أحمد بَاشَـا حينها أن الأمور ستزداد سوءًا، فقـرّر رفـع الحصار عـن القلعة كحيلـة أخيرة للتخلّص من هـذه المعاناة (١٩ تشـرين الأول/أكتوبر ١٥٥٢م). ولقد تأثّر أحمد بَاشَا كثيرًا من هذه الأوضاع السيئة، مما دفعه لتأنيب "علي بَاشَـا" الذي شـجّعه على غزو تلك المدينة. وأدّت هذه الأوضاع بعد فترة لسقوط "علي بَاشَا" من نظر أحمد بَاشَا.

وكانت قوة سكسونية بقيادة الأمير "ماوريس" في طريقها إلى دعم القوات المدافعـة عـن قلعـة مدينـة "أيـري"، إلا أن نبأ رفـع القـوات العثمانيـة الحصار عـن المدينـة وصلهـا وهي في الطريـق، فرجـع. ثم بعدها انشـغل النمسـاويون بتحصيـن المدينة وإحكام السـيطرة عليها. وقد شـكّلت هذه المحاولة الفاشـلة للجيـوش العثمانيـة فـي حصار مدينة "أيـري" واحدةً من ثلاث حملات فاشـلة أخفقـت فيهـا الدولـة العثمانية في عهد السـلطان سـليمان القانونـي إلى جانب حصـار فيينـا ومالطـا. وعُزل "علي بَاشَـا الخـادم" من منصبه عقب هذا الفشـل في حصار "أيري" بعد أن سقط من نظر الإدارة العثمانية، وعُيّن مكانه "تويجون بَاشَـا". وقـد حكم هذا الأخيـر مدينة "بودا" لعامين شـهدا أحداثًا مثيـرة للغاية. والسـبب فـي ذلـك أن المنطقـة الحدودية مـع النمسـا كانت تشـهد مناوشـات بين الجانبين بشـكل متواصل. وكان انشغال العثمانيين بصراعهم مع الصفويين حافـزًا للنمسـا لمواصلـة اعتداءاتها علـى أراضي الدولـة العثمانية فـي أوروبا. وقد دفعت هذه الاعتداءات والتجاوزات من النمساويين على الأراضي العثمانية "تويجون بَاشَا" إلى الردّ بهجمات مماثلة. وأفضت هذه الغزوات التي شنّها هذا الأخير إلى سـقوط مدينتـيْ "بيتش" و"ناجيكانيزا" في قبضـة الجيوش العثمانية. وكان السـلطان سـليمان مسـرورًا لحلّ أزمـة إقليم "أَرْدَلْ" كمـا كان يريد. وكان هناك خبرٌ آخر قادم من البحر الأبيض المتوسـط أسـرّه كثيرًا وأنسـاه آلام مرضه لفترة من الوقت.

أنشطة "تورجوت رئيس" في البحر المتوسط وفتح طرابلس الغرب

اشتهر "تورجوت رئيس" كثيرًا في أقاليم البحر المتوسط وذاع صيته كخليفة لـ"بَرْبَرُوسْ خَيْرَ الدين" على رأس الأسطول العثماني. وقد نقلت إحدى سفن أسطوله إلى البلاط العثماني بعض الأنباء ذات الصلة بالتطورات التي تشهدها منطقة البحر المتوسط، والأحداث المندلعة في مدينة "المهدية" وجزيرة "جربة" التونسيتين، بالإضافة إلى أوضاع الإسبان وأنشطتهم في تلك المنطقة.

وقد وُلد "تورجوت رئيس" في قرية "سيردالوز" أو "سيرالوز" التابعة لمدينة "موغلا (*Muğla*)" (بدروم) الساحلية جنوب غرب الأناضول. ولما كبر انضم إلى إحدى سفن القراصنة الذين كانوا يتلقون الدعم والزاد من سكان المناطق الساحلية في ولايتيْ "إِزْمِيرْ" و"منتشا (*Menteşe*)". حسب المعلومات التي يوردها أحد مؤرخي العهد العثماني وهو "جاليبولي مصطفى علي" في كتابه المعروف "كُنه الأخبار"، نجد أن المؤرخين الغربيين يروون أن "تورجوت رئيس" ينحدر من أصلٍ روميّ. كما تشير بعض مصادر البندقية التاريخية إلى أنه ذو أصلٍ إيطالي. وهناك مصادر تاريخية أخرى تؤكّد أن "تورجوت رئيس" كان يعمل إلى جانب القائد العثماني الإيطالي الأصل "أولوج علي". وتذكر المصادر التاريخية العثمانية أن "تورجوت رئيس"



"تُورْجُوتْ رئيس" البحار التركي الشهير

مارس العديد من فعّاليات القرصنة في بحريْ "إِيجَه" والأبيض المتوسط، ثم انضمّ إلى قوات بَرْبَرُوسْ في معركة "بريفيزا". وتروي المصادر ذاتها أن بَرْبَرُوسْ بعد أن استولى على قلعة "نوفا" وعاد إلى إسطنبول عام ١٥٣٩م، سمح لـ"تورجوت رئيس" بمزاولة أعمال القرصنة بحرية إلى جانب عدد من قادة البحرية العثمانية الآخرين.

وقد شرع "تورجوت رئيس" -أو كما اشتهر آنذاك باسم "تورجوتجا"- في ممارسة أعمال القرصنة لفترة من الوقت في مياه البندقية. ومن ثَمّ انتقل إلى المناطق القريبة من جزيرة مالطا بعد إبرام معاهدة سلام بين الدولة العثمانية والبندقية. وحينها طاف بسواحل إيطاليا الغربية، ووصل إلى ساحل مدينة "جنوة"، واستولى على سفن أسطول هذه المدينة الواحدة تلو الأخرى. ولقد دفعت هذه الأعمال التي قام بها العديد من القادة الإيطاليين للاستنجاد بالبحار الشهير "أندريا دوريا" لوقف نشاطه في البحر المتوسط بعدما اشتكوا منه ومن هجماته. فطاف "دوريا" بجميع سواحل إفريقيا بحثًا عنه، إلا أن جميع محاولاته لم يُكتب لها النجاح. ولم يكن "دوريا" هو الوحيد الذي يبحث عن "تورجوت رئيس"، بل كان ابن أخيه "جينيتينو دوريا" هو كذلك يبذل جهدًا حثيثًا لتحقيق الغرض ذاته. وبينما كان "تورجوت رئيس" منشغلًا بالاستيلاء على جزيرة "كورسيكا"، شنّ أسطول "جينيتو دوريا" هجومًا مباغتًا على سفن "تورجوت رئيس" وهي في حالة غير منظمة، مما أفضى إلى سقوط ١١ سفينة في أيدي الإيطاليين. ولقد استطاع القراصنة الأتراك الذين نزلوا إلى الشاطئ إنقاذ أنفسهم بشقّ الأنفس. إلا أن من بقي داخل السفن العثمانية قُتل بعضٌ منهم بأيدي الإيطاليين، والبعض الآخر سقط أسيرًا نتيجة هذا الهجوم. وكان "تورجوت رئيس" من بين الأسرى. وفيما يلي نسرد رواية حول هذه الواقعة:

لقد اعترت "جينيتو دوريا" فرحة عارمة بعدما ألقى القبض على "تورجوت رئيس". وبعد تقييده بالسلاسل، أُحضر "تورجوت رئيس" يرافقه حارسان إلى مقابلة القائد الإيطالي. وعندما رأى "تورجوت رئيس" أنه لم يقع أسيرًا في

يد "أندريا دوريا"، بل أسره فتى يافع لم ينبت شاربه بعدُ، أعرب عن اندهاشه وعجبه بقوله:

"يا إلهي! هل وقعت أسيرًا في يد فتاة بالغة؟!"

وما إن سمع "جينيتو دوريا" هذه العبارة حتى استشاط غضبًا، واقترب من "تورجوت رئيس" ورفع يده ليضربه، إلا أن "تورجوت" التصق به بينما كانت كلتا يديه مكبلة بالأصفاد، ولم يسمح له بلطمه. فهمّ "جينيتو دوريا" باستلال سيفه رغبةً منه في قتل "تورجوت"، لكن القادة والحراس الذين كانوا حوله حالوا دون ذلك، ونقلوه للانضمام إلى بقية الأسرى الذين يجدّفون مجادف السفينة. وعاش "تورجوتجا" حياة طويلة وشاقة في الأسر إلى أن خرج بَرْبَرُوسْ في غزوة إلى فرنسا عام ١٥٤٣م. إذ أنقذه بَرْبَرُوسْ من الأسر بالتهديد وبدفع الفدية، واستقبله بفرحة كبيرة عندما التحق بأسطوله. وأتحفه بالعديد من الهدايا حتى فاز بقلبه، وامتدحه أمام حاشيته بقوله:

"تورجوتجا أنفع منّي!".

وبعد أن نجا من الأسر، اتخذ "تورجوت رئيس" جزيرة "جربة" التونسية قاعدة لغزواته في البحر المتوسط، وانطلق إلى جولة بحرية على رأس أسطول صغير مكون من ٥ سفن. ووصل إلى سواحل إيطاليا وصقلية، حتى أطلق جيش الإمبرطورية السفن الإسبانية لاعتراض طريقه، إلا أنها فشلت في اقتفاء أثره والوصول إليه. وعلى الرغم من اتخاذه جزيرة "جربة" قاعدة لتحركاته في البحر المتوسط، إلا أنه شعر بالحاجة لبسط نفوذه على مكان أكثر ملاءمة يسمح له بالخروج في غزواته البحرية بشكل أكثر اطمئنانا وثقة. ولهذا السبب بادر إلى تنفيذ بعض المخططات الرامية للسيطرة على بعض المناطق في تونس، وعقد اتفاقًا مع حاكم تونس "سلطان حميد". وقد نصّ هذا الاتفاق على أن يزوّد حاكم تونس أسطولَ "تورجوت رئيس" بالمؤن والذخيرة مثل البارود وقذائف المدافع وغير ذلك، وفي مقابل ذلك يتعهّد "تورجوت رئيس" بتقديم المساعدة له عند الحاجة. وعقب إبرام هذا الاتفاق، عمد "تورجوت رئيس"

إلى بسـط نفـوذه على قلاع مدن "سوسـة"، و"صفاقـس"، و"منسـتير" الخاضعة للحكـم الإسـباني علـى الرغـم مـن تبعيتها فـي الأسـاس للحكومة التونسـية. كمـا عيّـن حاميات للدفاع عن تلك القلاع. وكانت قلعـة "المهدية" من بين أهم القـلاع التي اسـتولى عليهـا "تورجوت رئيس" في شـمال إفريقيـا. وتقـع مدينة "المهديـة" وقلعتها عنـد رأس "بونة" (عنابة). وكانت هـذه القلعة محصنة للغاية لإحاطتها بأسوار مزدوجة.

وشـوهدت سـفن "تورجوت رئيس" للمرة الأولى عند مشـارف القلعة عام ١٥٤٩م، ومكث عدة أيام في ميناء المدينة بعدما حصل على إذن من واليها كي يتزوّد بمـا تحتاجه سـفنه من مواد مختلفة. وشـهدت الفتـرة اللاحقة على ذلك التاريخ تردد "تورجوت رئيس" مرات عديدة على المدينة، وصادف رجلًا طمّاعًا مـن كبـراء المدينة يُدعى "إبراهيم". واتفق مـع هـذا الرجل على أن يعطيه نصيبًا معيّنًـا مـن الغنائم التـي كان يحصل عليها من عمليات القرصنـة. وبهذه الطريقة اسـتطاع "تورجـوت رئيس" التردد على مدينة "المهديـة" بحرية تامة لدى عودته من أسفاره البحرية، في مقابل منح "إبراهيم" بعضًا من غنائم عمليات القرصنة. وعلى الرغم من أن "إبراهيم" هذا بذل جهدًا كبيرًا لترسيخ دعائم ذلك الاتفاق، إلا أن مجلس المدينة لم يوافق عليه. ذلك لأن مجلس المدينة اتخذ هذا القرار خشـية التعرّض لغضب قادة إسـبانيا وجنوة. وما إن علم "تورجوت رئيس" بهذا القرار، حتى غادر المدينة على الفور، وبدأ في إعداد أسـطوله خِلسـةً في مدينتيْ "سوسـة" و"منسـتير"، ثم انطلق على رأس أسـطول صغير مكون من ٥-٦ سفن في ليلة حالكة إلى سواحل "المهدية". وساعده "إبراهيم" في دخول قلعة المدينة والسيطرة على أماكن حساسة داخل المدينة. وبعد أن استولى "تورجوت رئيس" على مدينة "المهدية"، أسـند إدارتها إلى شـقيقه "خضر"، وخرج مرةً أخرى على رأس أسطوله إلى غزواته البحرية.



القراصنة

لقد أُصيب الإسبان والإيطاليون بقلق وفزع كبيرين بعد فتح قلعة "المهدية" على يد "تورجوت رئيس". والسبب في ذلك أن فتح هذه المدينة يعتبر إضافة جديدة إلى قاعدة القرصنة التي أسسها القائد العثماني بَرْبَرُوسْ. وستؤدي هذه التطورات لاحقًا إلى استحالة تجوّل السفن الإسبانية والإيطالية في البحر المتوسط، وستتعرّض رحلات الأساطيل التجارية إلى ضربة قاصمة.

وقد دفعت هذه التداعيات الإمبراطور "كَارْل الخامس" إلى عقْد اجتماع برفقة أعضاء مجلس الحرب، واتخذوا قرارًا بشنّ غزوة على مدينة "المهدية". وانطلق "أندريا دوريا" على رأس أسطول مكون من ٥٣ قادسًا من إسبانيا، ونابولي، والفاتيكان، وصقلية، وسار به حتى وصل إلى "المهدية" وحاصرها. لكن قوات "دوريا" عانت الأمرّين في الاستيلاء على هذه القلعة الحصينة. حتى إن سفينة قيادة أسطول "دوريا" أصابتها قذيفة مدفعية أُطلقت من داخل القلعة، بعدما رغب قادتها في عدم الاقتراب أكثر لتفادي قذائف المدفعية، فسقط ٣-٥ أشخاص قتلى جراء هذا القصف. وقد أدّت هذه الواقعة إلى إجبار مجلس

الحرب على إعادة النظر في مخططاتهم، وقرّروا في نهاية المطاف السيطرة على مدينة "منستير" في البداية. فانطلق "دوريا" إلى المدينة، وأنزل جنوده إلى الساحل، واستولى على المدينة من دون مقاومة تُذكر. إلا أن القلعة الداخلية للمدينة قاومت كثيرا حتى إن حاميتها كبّدت القوات الإسبانية خسائر كبيرة.

وفي مقابل هذه المقاومة الباسلة، اضطر "دوريا" للتقهقر إلى الخلف للحصول على دعم إضافي. وقد نشب خلاف بخصوص أسلوب إدارة أسطول "دوريا"، إلا أنه تمكّن من إيجاد حل لتلك المشكلة. ثمّ حاصر مدينة "المهدية" مجددًا، وأنزل جنوده إلى ساحلها (حزيران/يونيو ١٥٥٠م). وفي هذه الأثناء بادر "تورجوت رئيس" إلى توفير المؤن والتموين اللازم لأهل القلعة، ثم بعدها خرج على رأس أسطوله من القلعة عازمًا على توفير التموين الضروري من الخارج لعلمه أن القلعة ستسقط في أيدي الأعداء لا محالة إن لم يأتها العون والمدد من خارجها.

وأما "خضر رئيس" الذي أُسندت إليه مهمة الدفاع عن القلعة، فبدأ في تحفيز معنويات حامية القلعة وأعدّهم للدفاع عن القلعة. وكان يدافع عن القلعة ١٧٠٠ جندي مشاة و٦٠٠ فارس. وعلى الرغم من هذه القوة العسكرية الضعيفة، استطاع "خضر رئيس" الخروج من القلعة في هجوم مباغت شنّه على قوات العدو، وألحق بالقوات الإسبانية خسائر فادحة.

أعقب ذلك تنظيم الإسبان هجومًا فاشلًا للاستيلاء على القلعة. وأسفرت هذه الأوضاع عن وقوع القوات الإسبانية في مأزق حقيقي، فهرع إلى نجدتهم حاكم تونس السابق "مَوْلَايْ حسن" الذي تسبب ابنه "حميد" في إصابته بالعمى وإبعاده عن عرش تونس. وبدأ جنود "مَوْلَايْ حسن" في دعم القوات الإسبانية في حربها ضد بني جلدتهم.

وقد شهدت هذه الفترة قيام "تورجوت رئيس" بهجوم عسكري على السواحل الإسبانية والإيطالية. كما لجأ إلى تونس وجزيرة "جربة" وسائر المدن العربية الأخرى لتجميع قوات إضافية لمواجهة أعدائه، حتى إنه وصل

إلـى جزيـرة "كيفالونيـا" اليونانية، وطلب المسـاعدة من السـلطان. لكنه بالرغم مـن كافة هذه المسـاعي الجـادّة لم يلقَ الاهتمـام الذي كان يأمل به. واسـتطاع فـي النهايـة تجميـع قـوة عسـكرية قوامهـا ٣٧٠٠ جنـديّ مغربيّ و٨٦٠ تركيًّـا، وسـار بهـم لمسـاندة حاميـة مدينـة "المهديـة". وأنـزل جنـوده إلـى السـاحل، وحينهـا رأى بعـض العمـال القادميـن مـن جزيـرة صقلية وهـم يقطعون أشـجار الزيتـون على السـاحل تحـت قيادة سَـريّة إسـبانية قوامهـا ٢٥٠ جنديًّـا. فأمـر جنـوده علـى الفـور بنصـب كميـن لقـوات العـدو، وعاجلهم بهجوم مباغت، إلا أنـه اضطر في النهاية إلى الانسـحاب والتوجّه صـوب جزيرة "جربة" بعدما هاجمته قوات مالطا وصقلية، مما دفع جنوده إلى الهرب خشـية الهزيمة. وفي مقابل ذلك، صمد "خضر بَكْ" في دفاعه عن القلعة، وكبّد قوات العدو خسـائر بالجملة، بحيث استطاع الصمود ورفاقه في مواجهة القوات الإسبانية على مدار شهرين كاملين. ولم يتمكّن الإسبان من دخول القلعة إلا بعد استشهاد آخر جندي مـن القـوات المدافعـة عن المدينـة، وكان "خضر بَـكْ" من بين الشـهداء الذين سقطوا وهم يدافعون عن القلعة.



لوحة للسلطان سليمان معروضة في المتحف الوطني المجري

وبعد أن سـقطت "المهدية" في أيدي الإسـبان، أرسـل السـلطان سـليمان خطابًا إلى الإمبراطور "كَارْل الخامس" أخبره فيه أن هجوم قواته على "المهدية" علـى الرغـم من معاهدة السـلام المبرمـة بينهما تعتبـر انتهاكًا صارخًـا للاتفاق الموقـع بين دولتيهما. فردّ "كَارْل الخامس" بخطابٍ أنقذ به الوضـع، إذ أبلغه فيه أن المعاهدات الموقعة بين الحُكّام لا تشـمل القراصنة، وأن "تورجوت رئيس"

لا يخضع لحماية السلطان. فلم يستطع السلطان سليمان التفوّه بكلمة أمام هذه الحُجة، لكنه لم ينسَ هذه الكلمات التي قالها "كَارْل الخامس"، وحفظها للاستعانة بها عندما تحين الحاجة إليها. وقد طاف "تورجوت رئيس" بسواحل إيطاليا وإسبانيا لفترة من الوقت متأثرًا بانفعاله بموت أخيه، وعمد إلى تخريب ما وصلت إليه يده في هاتين الدولتين. ودفعت هذه الأنشطة "أندريا دوريا" إلى البحث عنه في كل مكان. وفي نهاية المطاف علم أنه متواجد في جزيرة "جربة". التي تقع أمام خليج "قابس" شرق تونس. وتوجد مساحة من المياه الضحلة للغاية بين هذه الجزيرة والبحيرة الواقعة في الساحل. وتبلغ المساحة بين رأس الجزيرة الجنوبي والساحل المقابل ميلين فقط، وتعدّ مياه هذه المنطقة ضحلة للغاية لدرجة أنه يمكن للإنسان العبور من الجزيرة إلى اليابسة سيرًا على الأقدام من دون الحاجة إلى السباحة في مياهها. ويوجد عند منتصف هذا المضيق قناة ضيقة بإمكان السفن بعمق ٢٠٠ متر المرور منها، ويُطلق على تلك المنطقة اسم "القنطرة". ولم تكن البحيرة الواقعة في الجزء الخلفي من المضيق تسمح بعبور السفن، إذ لم تكن أية سفينة بإمكانها الدوران حول هذه المنطقة للوصول إلى غرب جزيرة "جربة".

وبحلول خريف عام ١٥٥٠م قام "تورجوت رئيس" بسحب سفنه إلى ذلك المضيق، وانشغل بصيانتها وإصلاحها. وكان "أندريا دوريا" يبحث عن "تورجوت رئيس" في تلك الأثناء، حتى وصل أسطوله إلى جزيرة "جربة". وحينها شعر "تورجوت رئيس" أنه لن يستطيع مقاومة أسطول "دوريا" الضخم، ففضّل تنفيذ حيلة غريبة للغاية لإنقاذ نفسه وسفنه من أيدي الأعداء حيث بادر "تورجوت رئيس" بالإعداد الجيّد لصدّ هجوم سفن العدو، وبدأ في قصفها بالمدافع لمنعها من العبور من المضيق. فأمر "دوريا" جنوده بالنزول إلى الساحل، وقام بتنصيب أوتاد الإشارات (الأوتاد الإشارية) في النقاط العميقة بمنطقة "القنطرة" مستخدمًا السفن القادرة على الإبحار في المياه الضحلة. ذلك لأنه كان يظنّ أن "تورجوت رئيس" قد حوصر ولم تعد لديه فرصة في النجاة. ولم يشرع "دوريا" في الإقدام على تنفيذ هجوم لحصار المنطقة، وانتظر حتى تصله مساعدات طلبها من إيطاليا.

وفي النهاية، أُصيب بحالة من الدهشة والذهول بعدما جاءته أنباء عن قدوم السفن التي جلبت المساعدات، والتي كانت تبدو بعيدة عن الجزيرة. إذ أرسل إليه قبطان إحدى السفن التابع لفرسان "سانت جيان" رسالة أبلغه فيها أنه تحرّك بسفينتين من مدينة "ترابانـي"، وأنهم تعرّضوا لهجوم من أسطول "تورجوت رئيس" بينما كانوا في طريقهم إلى تونس، مما أسفر عن سقوط قادسٍ من نوع "كابودانا" في أيدي العثمانيين، مشيرًا إلى أنه استطاع إنقاذ نفسه بصعوبة بالغة من بين أيديهم.

وما إن سمع "دوريا" هذه الأنباء، حتى اعترته مشاعر الحيرة والقلق. ثم بعد ذلك سارع إلى الاقتراب بسفنه من الميناء، ولم يجد أحدًا هناك سوى السكان العرب المحليين. بيد أن "تورجوت رئيس" كان قد زرع أوتادًا في الطريق بواسطة بعضِ العمال الذين استأجرهم من أهالي جزيرة "جربة" في وقتٍ كان "دوريا" منشغلًا فيه بحصار الجزيرة، واستطاع بفضل هذه الأوتاد نقل سفنه من المياه الضحلة إلى البحر العميق. وكانت هذه الفكرة من الأفكار التي لجأ إليها السلطان محمد الفاتح إبّان حصاره لمدينة إسطنبول أثناء فتحها. وفي الوقت الذي دخل فيه "دوريا" ميناء الجزيرة بسفنه وسط حيرة ودهشة، كان "تورجوت رئيس" قد أبحر بأسطوله إلى "بحر الجزر" منذ وقت طويل.

وصل "تورجوت رئيس" إلى بحر "إِيجَه"، وأرسل إحدى سفن أسطوله إلى السلطان سليمان لينقل إليه آخر الأنباء المتعلقة بالأحداث التي شهدتها مدينة "المهدية" وجزيرة "جربة" في شمال إفريقيا. وقد سُرّ السلطان سليمان كثيرًا بلجوء "تورجوت رئيس" إليه، إذ كان السلطان عازمًا على تنفيذ المخطط ذاته الذي كان ينفذّه "تورجوت" ضد الإمبراطور "كَارْل الخامس". وأمر السلطانُ "تورجوت رئيس" بالانتظار في جزيرة "وابية". وكان الأسطول العثماني يخضع لعملية إعداد كبيرة في إسطنبول. إذ كان السلطان سليمان يهدف من وراء تجهيز الأسطول إلى شنّ هجوم شامل على القلاع النصرانية المبنية على السواحل التونسية، وتطهيرها من القراصنة. وأعدّت القيادة العسكرية العثمانية في ربيع

عام ١٥٥١م أسطولًا مكوّنًا من ٩٠ قادسًا، وعليه قوة قوامها ١٠ آلاف جندي منهم ٣٥٠٠ من الإنْكِشَارِيّة. والتقى هذا الأسطول بقيادة "سنان بَاشَا" بأسطول "تورجوت رئيس" عند جزيرة "وابية" في بحر "إِيجَه"، وتحرّك الجميع صوب مدينة "بريفيزا". وقد وصلت أخبار التحرّكات التي تشهدها الترسانات العثمانية إلى مسامع قادة الجيش الإسباني. ولأنهم لا يعلمون الهدف الذي يسعى العثمانيون لتنفيذه، بادروا إلى تحصين بعض الأماكن التي تحمل أهمية بالنسبة لهم ضد أي هجوم محتمل من الأسطول العثماني. وجاءت مدينة "المهدية" في مقدمة المدن التي كثّفوا تحصيناتها لصدّ أي هجوم محتمل.

عبرت سفن الأسطول العثماني البحر الأيوني، ووصلت إلى مضيق "مسينا"، وطافت لفترة من الوقت في تلك المنطقة. ومن ثَمّ أنزلت دفعات من الجنود على البر، ودمّر بعض الأماكن على الساحل. ثم توجّه الأسطول بعدها إلى مالطا التي كان "كَارْل الخامس" قد منحها إلى فرسان "سانت جيان" في وقت سابق للجوء إليها والإقامة بها بعد مغادرتهم جزيرة "رودس". ووصل الأسطول العثماني إلى سواحل مالطا يوم ١٨ تموز/يوليو عام ١٥٥١م. وعلى الرغم من إصدار "سنان بَاشَا" -قائد الأسطول- أوامره بإنزال الجنود إلى الساحل، تراجع بعد ذلك عن حصار مالطا، وسار بأسطوله نحو طرابلس الغرب.

وكانت تلك المدينة قد سقطت في يد مملكة نورمان صقلية بعد أن حكمها الأمويون، والعباسيون، والأغالبة، والفاطميون. ثم بسطت دولة "موحد الدين" سيطرتها على المدينة، ثم استولت عليها أسرة بني حفص التي كانت تحكم تونس. وفي عام ١٥١٠م وقعت في أيدي الإسبان الذين منحوها عام ١٥٣٠م إلى فرسان "سانت جيان" المستوطنين في مالطا. وما إن هجم النصارى على هذه المدينة، حتى همّ المسلمون للدفاع عنها، إذ اتخذوا قلعة "تاجوراء" الواقعة شرق طرابلس قاعدة لهم لمهاجمة أعدائهم. إلا أنهم لجأوا إلى الدولة العثمانية لطلب المساعدة بعدما أدركوا أنهم لن يستطيعوا مواجهة أعدائهم بمفردهم نظرًا لقلة عددهم وعتادهم. فأرسل السلطان سليمان أحد أغاوات "أندرون" ويُدعى

"مراد أغا الخادم" إلى سواحل شمال إفريقيا لدعم المسلمين هناك. وبدأ هذا الرجل في مقاومة فرسان مالطا المقيمين في طرابلس، إلا أنه فشل في التصدّي لهجماتهم، وسارع لطلب المزيد من المساعدة من السلطان سليمان.

وعندما وصل قائد الأسطول العثماني "سنان بَاشَا" إلى مشارف "طرابلس الغرب"، حتى فتح قناة للاتصال مع "مراد أغا"، كما طالب "جاسبارد دي فالبير" قائد فرسان مالطا في طرابلس بتسليم المدينة. وعندما علم "سنان بَاشَا" أن هؤلاء لن يتراجعوا عن الدفاع عن المدينة، حاصر المدينة وبدأ في الإعداد لمهاجمتها. وكانت تضمّ قلعة المدينة -بخلاف فرسان مالطا- جنودًا فرنسيين، وإيطاليين، وإسبان، وحتى مغاربة مسلمين. فأنزل "سنان بَاشَا" إلى الساحل ٦ آلاف جندي و٤٠ مدفعًا، وبدأ في حصار القلعة وقصفها بالقذائف المدفعية. وكثّفت القوات العثمانية قذائفها على الأماكن الضعيفة من أسوار القلعة بعد تحديدها، حتى تصدّعت أسوارها وفُتحت بها الثقوب. وفطنت حامية المدينة وقتها أنها لن تستطيع الصمود طويلًا أمام هذا الهجوم الضاري، فأبلغوا "سنان بَاشَا" باستعدادهم للاستسلام والتخلّي عن المدينة بشرط عدم المساس بأهلها وممتلكاتهم، وتزويدهم بالسفن اللازمة للمغادرة إلى مالطا وصقلية. وعليه، فقد سقطت القلعة في أيدي القوات العثمانية يوم ١٢ شعبان عام ٩٥٨هـ (١٥ آب/أغسطس ١٥٥١م). وعندما دخل "سنان بَاشَا" المدينة أسند إدارتها إلى حاكم تاجوراء "مراد أغا".

لم يندهش "تورجوت رئيس" من إسناد مهمة إدارة طرابلس إلى "مراد أغا"، إذ إن علاقته بـ"سنان بَاشَا" كانت قد ساءت منذ حصار جزيرة مالطا. ذلك لأن الاثنين دخلا في خلاف حاد بخصوص حصار مالطا. وحينما أدرك "سنان بَاشَا" التحصينات التي تتمتع بها قلعة الجزيرة، التفت إلى "تورجوت رئيس" وقال له:

> "هل هذه القلعة التي أخبرتني أن غزوها سهل؟ فليس هناك أي نسر يرغب في أن يبني عشّه في مكان أعلى وأكثر انحدارًا من الصخرة التي بُنيت عليها تلك القلعة".

فردّ عليه "تورجوت رئيس" قائلًا:

"لا يمكنك بلع اللقمة دون أن تمضغها. حاول أن تتذكر ماذا فعل الإسبان عندما هاجموا قلعة مدينة المهدية من قبل".

وحينها عاجله "سنان بَاشَا" بقوله:

"قل لي ماذا فعلوا إذًا؟"

فأجابه "تورجوت" بجوابٍ أفحمه جاء فيه:

"هل أقول لك ماذا فعلوا؟! لقد حاربوا وضحوا بأنفسهم في سبيل الاستيلاء على القلعة، وسقط منهم العديد من القتلى من أجل تحقيق هذا الهدف".

وقد أدّى هذا الخلاف إلى نشوب حالة من عدم التفاهم بينهما، لا سيما وأن "سنان بَاشَا" كان يخشى من تهديد "تورجوت" لمنصبه بفضل قدراته المتميزة وشجاعته وشهرته التي كان يتمتع بها. وللسبب ذاته بدأ "سنان بَاشَا" في استثقال "تورجوت" ومعاملته بطريقة سيئة. وقد امتعض "تورجوت رئيس" من إسناد أمور إدارة طرابلس الغرب إلى "مراد أغا"، وقرّر الخروج إلى البحر برفقة أصدقائه. وعندما رأى سفن الأسطول تسير خلفه، صدّهم وأمرهم بالعودة، وأخبرهم بأن فتح طرابلس قد تمّ ونفذ رغبة السلطان سليمان، وأنه الآن حرّ يفعل ما يشاء، وأن الأسطول العثماني يخضع لأوامر القبطان "سنان بَاشَا". وعلى الأرجح فإنه وافق على الانضمام إلى الأسطول بعدما ألحّ عليه "سنان بَاشَا" وسائر قادة الأسطول الآخرين، ورضي بالعودة إلى إسطنبول. وبعد فتح طرابلس الغرب عام ١٥٥١م، التحق "تورجوت رئيس" بالأسطول العثماني الذي أبحر لمساعدة الفرنسيين عام ١٥٥٢م. وتشير إحدى الوثائق التاريخية الموجودة في مكتبة متحف قصر "طُوبْ قَابِي" بإسطنبول إلى أن "تورجوت" تولّى إدارة إمارة "قارلي" بتاريخ ١٥ نيسان/أبريل ١٥٢٢م.

حملة بحرية مشتركة مع فرنسا

بدأت الأجواء في البحر المتوسـط في التوتّر في تلك الأثناء، إذ كان ملك فرنسـا "هنري الثاني" قد أرسـل خطابًا إلى إسـطنبول يطلب المساعدة إثر تجدد الخلافـات الناشـبة مـع "كَارْل الخامس". وقـد أعلن هذا الأخيـر الحرب على فرنسا بتاريخ ٢٩ أيلول/سبتمبر ١٥٥١م. إلا أن السلطان سليمان لم يأخذ طلب العـون القادم من فرنسـا علـى محمل الجد في البداية لعلمه بمعاملة الفرنسـيين السابقة لقائد أسطوله بَرْبَرُوسْ ، ورفض الطلب الفرنسي قائلًا:

"ملك فرنسا لا يفي بوعوده قطّ!"

لكن السـفير الفرنسي في إسطنبول اسـتطاع استمالة وزراء البلاط العثماني بالهدايا القيمة التي قدمها إليهم.

وقرّر السـلطان سـليمان في نهاية الأمر الموافقة على طلب مسـاعدة فرنسا بشـرط حصوله على جميع الأسـرى والغنائم والبضائـع والسفن التي ستستولي عليها القوات العثمانية والفرنسية من أسطول التحالف.

وتشير بعض المصادر التاريخية إلى أن هناك أسبابا أخرى كامنة وراء موافقة السلطان سليمان على تقديم المساعدة للفرنسيين بخلاف هذه المعلومات التي وردت أعلاه. فالسلطان كان يرى أن تشكيل فرنسا لجبهة تحالف جديدة سيكون مناسبًا من أجل تنفيذه خططه بسبب الاشتباكات الحدودية الدائرة حول ولايتيْ "أَرْدَلْ" و"بودا". وقد أشار السلطان إلى هذه الأوضاع بشكل واضح في رسالتيْن أرسـلهما إلى ملك فرنسـا بتاريخ ٢٢ حزيران/يونيو ١٥٥٢م. وأكّد السلطان في الرسـالة الأولى أن "فرديناند" بدأ في التصـرّف بمكرٍ وحيلةٍ، وبالتالي فلا يمكن الثقة به بعد الآن، كما أنه لا يمكن الأخذ بعين الاعتبار أي رسول أو سفير يأتي مـن طرفـه. وأما الرسـالة الثانية فذكـرت أن الدولة العثمانيـة وافقت على طلب فرنسا بعدم الإغارة على الأقاليم التابعة للبابا، كما أن قواتها لن تهاجم المناطق

التي تربطها صداقة بفرنسا، مشدّدةً على أن هذا الأمر لا ينطبق على التعامل مع الأراضي الإسبانية. وفي الوقت الذي وافق فيه السلطان سليمان على إرسال أسطوله لمساندة الفرنسيين وعدم التعرّض لأراضي البابا حليفهم، أبلغهم أنه لن يتبع السياسة ذاتها مع الإسبان. وطالب -في مقابل هذه المساعدات- الفرنسيينَ بعدم التحالف مع عدوه "فرديناند"، ورَفْض استقبال أي رسول يرسله آل "هابسبورج" إلى فرنسا.

لقد وصلت هاتان الرسالتان إلى ملك فرنسا أواسط شهر حزيران/يونيو، وكان الأسطول العثماني قد بدأ في استعداداته للإبحار في فصل الربيع من العام نفسه. وجاء "تورجوت رئيس" -حاكم إمارة "قارلي إيلي"- أمرٌ بتاريخ ١٥ أبريل/ نيسان ١٥٥٢م من أجل الالتقاء بقوات "سنان بَاشَا"، والانضمام إلى الأسطول الذي سينطلق لتقديم المساعدة لفرنسا. ثم بعد ذلك أُرسل أمرٌ إلى حاكم الجزائر وقائد الأسطول العثماني "سنان بَاشَا" بتاريخ ٢ أيار/مايو ١٥٥٢م لإخباره بأنه تقرّر تحديد ميناء "أنابولو" للقاء بين الأسطولين العثماني والفرنسي[٨٥].

وقد أبحر الأسطول العثماني المكون من ١٠٣ قوادس بقيادة "سنان بَاشَا" في ربيع عام ١٥٥٢م. وكان الأسطول العثماني يضم سفن "تورجوت رئيس" حاكم إمارة "قارلي إيلي"، كما شارك السفير الفرنسي "جابريل دي أرمون" في هذه الغزوة بثلاث سفن. حتى إن القيادة العثمانية أرسلت أمرًا إلى رئيس البلدية بتاريخ ٥ حزيران/يونيو لتزويد سفينة السفير الفرنسي بالبارود[٨٦].

ووصل الأسطول العثماني إلى سواحل مدينة "ريدجو" الإيطالية في أوائل شهر تموز/يوليو، ثم انفصل "تورجوت رئيس" باثنتي عشرة سفينة من سفن الأسطول وشرع في الهجوم على جزيرة "صقلية". ولم يكن الأسطول العثماني قد استطاع مقابلة الأسطول الفرنسي في ميناء "أنابولو" كما كان متفقًا عليه، فأرسل قائد الأسطول "سنان بَاشَا" رسالة إلى السفير الفرنسي "دي أرمون"

---

(٨٥) *(K.888, s.202 b-207 b; 167 a)*

(٨٦) *(K.888, s.211 a)*

يسـألە عن سـبب تأخر الأسـطول الفرنسـي، فأجابه الأخير بأن السـبب في ذاك ربما يكون اعتراض "أندريا دوريا" بأسـطوله طريق الأسـطول الفرنسي، موضحًا أنه يمكن مقابلة الأسـطول الفرنسـي إذا ما كانت السـفن العثمانية سـتتحرك من سـواحل إيطاليـا نحو الشـمال. وعليـه، بدأت السـفن العثمانية فـي التقدّم نحو الشـمال متعقبةً السـواحل الإيطالية. وفي تلك الأثناء وردت معلومات تشير إلى أن أسـطول "دوريا" سـيبحر إلى تلك المنطقة أيضًا. وحينها راجـع "سـنان بَاشَا" رفيقـه "تورجوت رئيس" وتشـاور معه حـول التدابير التي مـن الممكن اتخاذها للتعامـل مـع هجوم محتمـل يقوم بـه "دوريا"، فقـال له "تورجـوت رئيس" إن "دوريا" سيسـلك طريقًا بين جزيرة "بونزا" وسـاحل اليابسة، وعرض عليه نصب كمين لأسطوله في تلك المنطقة.

ثم تحرّك الأسطول العثماني ووصل إلى سواحل جزيرة "بونزا" بعد الموافقة على مقترح "تورجوت رئيس". وبدأت إدارة الأسطول العثماني في صيانة السفن وتزويدهـا بمـا ينقصها مـن ناحية، ومن ناحية أخرى أخذت فـي التأهّب انتظارًا لسـفن أسـطول "دوريا". وكان "دوريا" في ذلك الوقت في طريقه نحو "نابولي" مرورًا بالسـواحل الإيطالية يسـير بحذرٍ شـديد. وبادر إلى إرسـال المسـتطلعين لتمشيط المنطقة للوقوف على المخاطر التي من الممكن أن تواجهه في رحلته. وعلم "دوريا" وقتها أن الأسـطول العثماني قد توجّه إلى جزيرة "بونزا"، فجمع أعضاء مجلس الحرب واتفقوا جميعًا على مواصلة الطريق شريطة المرور بعيدًا عـن جزيـرة "بونـزا". وعندما وصل أسـطوله إلـى الجزيرة لم يرَ أي أثر للسـفن العثمانية، مما جعله يستكمل طريقه بثقة كاملة. ثم بعد ذلك أدرك أن "تورجوت رئيـس" يتعقّب أسـطوله من الخلف بأسـطول قوامه ١٢ سـفينة، فلم يرغب في الدخول في اشـتباك معه، وأمر سـفنه بالإسـراع في التقدّم في طريقها للخلاص من هذا الخطر. وفي مقابل ذلك، قامت سفن "تورجوت رئيس" بالاستيلاء على ٧ سـفن من أسـطول "دوريا" كانت تسير في الخلف بعد أن انطلقت بقية السفن مسرعة في طريقها. وربما استطاع "دوريا" النجاة بنفسه من هزيمة محققة بفضل سرعة سفنه (٥ آب/أغسطس ١٥٥٢م).

لقد فضّل "سنان بَاشَا" البقاء بأسطوله في سواحل جزيرة "بونزا" لفترة من الوقت، ثم انطلق مجددًا للعودة إلى إسطنبول. وكان الأسطول الفرنسي قد تأخر في اللحاق بركب السفن العثمانية بسبب تغيير قائده. وبعد أن وجد الفرنسيون حلًا لهذه المسألة، انطلق أسطولهم إلى مضيق "مسينا" للقاء الأسطول العثماني، لكنهم علموا حينها أن السفن العثمانية انطلقت عائدةً إلى إسطنبول. فأسرعت السفن الفرنسية إلى الانطلاق هي الأخرى للحاق بركب الأسطول العثماني. وأدرك الأسطول الفرنسي السفنَ العثمانية وهي راسية في إحدى الجزر القريبة من جزيرة "ليفكادا" اليونانية وبحّارتها منشغلون بتزييتها وصيانتها. وقد أعرب قائد الأسطول الفرنسي المكون من ٢٤ سفينة عن رغبته في عدم العودة إلى فرنسا لاقتراب حلول قضاء فصل الشتاء، وأفاد بأنه يريد قضاء الشتاء في جزيرة "خيوس"، كما طلب إذنا من قيادة الأسطول العثماني من أجل الذهاب إلى إسطنبول برفقة السفير الفرنسي. ووصل هذا الطلب إلى السلطان سليمان عن طريق قائد الأسطول "سنان بَاشَا"، وأخبرهم السلطان بأنه لا يمانع في قضائهم فصل الشتاء في جزيرة "خيوس" (٢٦ أيلول/سبتمبر ١٥٥٢م). وبناءً على هذا الإذن السلطاني، قضى الأسطول الفرنسي فصل الشتاء في جزيرة "خيوس"[٨٧]. ثم بعد ذلك وصل السفراء الفرنسيون إلى إسطنبول بعد الموافقة على طلبهم، والتقوا السلطان سليمان والصدر الأعظم "رستم بَاشَا". وأسفر هذا اللقاء عن صدور قرار بتنظيم غزوة جديدة مشتركة بين الأسطولين العثماني والفرنسي إلى سواحل إيطاليا.

وقد أرسل السلطان سليمان رسالةً بتاريخ ٦ أيلول/سبتمبر ١٥٥٢م إلى "تورجوت رئيس" الذي عاد من رحلة دعم الأسطول الفرنسي برفقة "سنان بَاشَا" أخبره فيها أنه علم بالإنجازات التي حقّقها في المناوشات التي وقعت مع "دوريا" خلال هذه الرحلة من "سنان بَاشَا". وخاطبه بقوله:

---

(٨٧) *(KK.888, s.448 b)*

"... لقد شاركتَ في العديد من الغزوات، وأظهرتَ العام الماضي شجاعة وبسالة كبيرتين، فأنت خادمي المطيع مظهر الجلادة والشهامة. بيّض الله وجهك. وما نتمنّاه هو أن تقدّم المزيد من الخدمات وتبيّض وجوهنا في غزوات قادمة..."

وأبلغه أنه عيّنه للحفاظ على أمن هذه المناطق على رأس أسطول مكون من ٤٠-٥٠ سفينة، ذلك لأن موسم الغزوات لم ينتهِ بعد. كما أخبره أنه أضاف مبلغ ٤٠ ألف قطعة فضية إلى دخله في مقابل هذه الخدمات[٨٨]. وعلاوة على ذلك، صدر أمرٌ إلى قائد الأسطول "سنان بَاشَا" العائد من السفر إلى سواحل "روملي" بالقرب من جزيرة "ليفكادا" لصيانة الأسطول بتاريخ ٢٨ آب/أغسطس (٧ رمضان) يخبره بأنه تم تكليف "تورجوت رئيس" بالدفاع عن المناطق البحرية الخاضعة للدولة، وأنه يجب عليه -أي "سنان بَاشَا"- القدوم فورًا إلى إسطنبول ببقية سفن الأسطول باستثناء السفن التي تُركت تحت قيادة "تورجوت رئيس". وهذا يوضح لنا أن الدولة العثمانية قد اتخذت قرارًا نهائيًا بالخروج بأسطولها في غزوة مشتركة مع الفرنسيين.

تحرّك الأسطول العثماني بقيادة "سنان بَاشَا" من إسطنبول في شهر نيسان/أبريل عام ١٥٥٣م. ثم وصل إلى جزيرتيْ "وابية" و"مودون" واتحد مع أسطول "تورجوت رئيس"، بعد ذلك توجّهوا جميعًا نحو مضيق "مسينا". وكان الأسطول العثماني مؤلفا من ١٥٠ سفينة منها ٢٠ قادسًا فرنسيًا، و٥٠ قادسًا مملوكًا للقراصنة. وبدأ الأسطول المشترك العثماني - الفرنسي في البحث عن سفن "أندريا دوريا"، بحيث أنزل جنوده إلى سواحل "صقلية" و"كاتانيا"، وشرع في قصف السواحل الإيطالية. ثم صدر قرارٌ من إدارة الأسطول بالهجوم على جزيرة "كورسيكا" بمقترح من الفرنسيين. وحاصر الأسطول مدينة "باستيا" التي تعتبر مركز الجزيرة، وهزمت القوات العثمانية - الفرنسية قوة قوامها ٤ آلاف فارس و٣ آلاف جندي مشاة جاءت لمساندة حامية المدينة.

(٨٨) K.888, s.430 a)

وفـي النهايـة، استسـلمت المدينة بتاريـخ ١٧ آب/أغسـطس ١٥٥٣م. وأعطت قـوات التحالـف العثماني - الفرنسـي الأمـان لنحو ٤٠-٥٠ من نبـلاء المدينة، وأسرت الباقي. ثم بعد ذلك أُطلق سراح حوالي ٧ آلاف سجين مسلم محبوسين في سـجون المدينة. وقد نُقل هؤلاء السـجناء أثناء عودة الأسطول العثماني إلى مدينة "فلورة" الألبانية وأُسكنوا بها.

"بِيرِي رئيس" ومسألة أسطول الهند

تشـير المصـادر التاريخيـة إلـى أن السـلطان سـليمان بـدأ بعـد عودتـه مـن غزوتـه الثانية إلـى إيران فـي الاهتمـام بشـؤون الأسـطول العثمانـي فـي الهنـد، إضافـةً إلـى الأحـداث التـي شـهدها البحـر الأبيـض المتوسـط فـي الأسـاس. فلقـد اسـتمر الصـراع العثمانـي - البرتغالي فـي البحر أيضًا عقب عودة "سـليمان بَاشَـا الخـادم" مـن غـزوة الهند. وقـد أولى العثمانيـون اهتمامًا أكبـر بأسـطولهم فـي البحـر الأحمر بعـد أول غـزوة قاموا بها إلـى الهند. وكان "فرهـاد بَكْ" يتولّى منصب قائد الأسـطول المصري قبل أن يُعيّن واليًا على اليمن، فعُيّن مكانه "بِيرِي رئيس" قائدًا على أسـطول الهند (١٥٤٧م). و"بِيرِي رئيس" هو ابن شقيق البحار الشهير "كمال رئيس"، إذ شارك معه في العديد من الغزوات البحرية. وبعد وفاة "كمال رئيـس"، عمـل "بِيرِي رئيس" لمدة في الأسـطول العثماني تحت إدارة بَرْبَرُوسْ.



جزء مـن خريطـة العالـم، رسـمها "بيري رئيس"، وتظهر المحيط الأطلسي وأسبانيا وشـمال غـرب إفريقيـا، وشـمال شـرق ووسـط أمريكا، ويعود تاريخها إلى شـهر أبريل/نيسـان عـام ١٥١٣م. متحـف قصر "طوب قابي"

وانضمّ إلى أسطول الصدر الأعظم إبراهيم بَاشَا الذي انطلق إلى مصر بحرًا في عهد السلطان سليمان، وشغل منصب مرشد الأسطول في هذه الرحلة.

وقد عرض كتابه الشهير "كتاب البحرية" الذي ألّفه عن علوم البحار على الصدر الأعظم، ثم أهداه إلى السلطان سليمان عام ٩٣٢هـ (١٥٢٦م)، وأتحفه أيضًا بخريطة للعالم رسمها بيده عام ٩٣٥هـ (١٥٢٨م). وتحمل الخريطة التي رسمها بيده أهمية كبيرة نظرًا لأنها كانت تضمّ القارة الأمريكية. وكان كتابه "كتاب البحرية" يضمّ خرائط سواحل بحريْ "إِيجّه" والأبيض المتوسط، وتظهر الموانئ الواقعة على تلك السواحل. وكان "بِيرِي رئيس" قد تقدّم به العمر عندما أُسندت إليه إدارة الأسطول المصري في السويس.

وفي تلك الأثناء استولى البرتغاليون على "عدن". وكان خروج تلك المدينة من أيدي العثمانيين يعني خسارةً إستراتيجية كبيرة بالنسبة لهم. وبهذه الطريقة، استطاع البرتغاليون بسط نفوذهم على المنطقة الواقعة عند مخرج البحر الأحمر في الجنوب، بحيث شكّلت هذه الحادثة تهديدًا حقيقيًا للمصالح الاقتصادية العثمانية في هذه المنطقة. ولهذا السبب تحرّكت القوات العثمانية بقيادة "بِيرِي رئيس" على الفور، واستطاعت إعادة سيطرتها على قلعة "عدن" بتاريخ ١٢ شباط/فبراير ١٥٤٩م. هذا إلى جانب أن العثمانيين حصّنوا المناطق الخاضعة لسيطرتهم في اليمن، وبسطوا نفوذهم على منطقتيْ "البصرة" و"الإحساء"، مما أصاب البرتغاليين بهلعٍ كبير. ذلك لأن القوات العثمانية كانت تهدد قلعة مضيق "هرمز" الذي يعتبر النقطة الوحيدة التي يمكن الاعتماد عليها للسيطرة على مداخل ومخارج الخليج العربي. كما كان العثمانيون قد استولوا على منطقة "القطيف" قبل عام ١٥٥٠م بقليل، مما ألقى الرعب والخوف في قلوب البرتغاليين. وقد أدّت كافة هذه الوقائع إلى فشل البرتغاليين في إظهار هيمنتهم في البحر الأحمر، مما دفعهم في نهاية المطاف إلى التحرّك بُغية إيقاف سيطرة العثمانيين في الخليج العربي وطردهم من المناطق الساحلية التي استوطنوا بها في تلك المنطقة. فتوجّه البرتغاليون عام ١٥٥٠م إلى منطقة "القطيف"،

واستطاعوا تحقيق نصر مؤقت أمام قوة عثمانية قوامها ٦٠٠ جندي. إلا أنهم تعرّضوا لهزيمة فادحة عندما حاولوا التقدّم أكثر في مياه الخليج العربي. وفي مقابل هذه الهجمات التي شنّها البرتغاليون، بادر العثمانيون إلى إعداد أسطول من أجل الإبحار في غزوات في المحيط الهندي.

وفي الوقت الذي كان فيه "بِيرِي رئيس" يعدّ العدّة من أجل الخروج في غزوة إلى الهند، صدرت أوامر لحاكم البصرة "قوباد بَاشَا" بإعداد جيش من ١٥ ألف جندي وعدد من السفن. ويبدو أن الهدف الرئيسي من هذه الإعدادات العسكرية هو السيطرة على مضيق هرمز. وتحرّك "بِيرِي رئيس" من ميناء السويس المصري في شهر أيار/مايو عام ١٥٥٢م على رأس أسطول مكون من ٢٤ قادسًا، و٤ سفن شراعية / مجدافية، و٨٥٠ جنديًا. ووصل هذا الأسطول إلى ميناء "جدّة"، ثم عبر مضيق "باب المندب"، ومن ثَمّ وصل إلى مدينة "عدن". بعد ذلك تعقّب ساحل البحر حتى وصل إلى ميناء "مسقط". وكانت مدينة "مسقط" تعتبر من أهم مناطق عمان الواقعة في أقصى جنوب شرق شبه الجزيرة العربية، كما كانت المدينة تتمتع بأهمية كبيرة للغاية نظرًا لأنها كان تشهد مرور السفن المتوجّهة من منطقة الخليج العربي إلى سواحل شرق إفريقيا. وكان البرتغاليون قد حاصروا مدينة "مسقط" بأسطول قوامه ٤٠ سفينة، وبسطوا هيمنتهم عليها، وحصّنوا هذه المنطقة بشكل جيّد للتصدّي للسفن العثمانية القادمة من البحر الأحمر. وكان "بِيرِي رئيس" يأمل في السيطرة على هذه المناطق الهامة الخاضعة للبرتغاليين من أجل تأمين طرق المواصلات بين الهند والخليج العربي.

وبعد أن وصل الأسطول العثماني إلى "مسقط"، تم إنزال الجنود والمدافع الكبيرة على الفور، وبدؤوا في قصف قلعة المدينة. واستمر قصف القلعة على مدار ستة أيام متواصلة إلى أن سقطت في اليوم السابع، ودُمّرت القلعة، وأُسر أفراد حاميتها. ثم توجّه "بِيرِي رئيس" بعدها إلى مدخل الخليج العربي، وحاصر منطقة مضيق "هرمز" التي كانت تعدّ بمثابة الهدف الرئيسي لغزوته تلك (١٩ أيلول/سبتمبر).



لوحة تُصور وصول الأسطول العثماني بريشة فنان مجهول.

وعلى الرغم من تدمير قلعة "هرمز" بعد تعرّضها لقصف عنيف من قبل القوات العثمانية، لم تسقط في أيديهم، لكنهم عمدوا إلى تدمير المناطق المحيطة بها. وبينما الأمر كذلك جاءت أنباء إلى قيادة الأسطول العثماني تتحدث عن تحرّك أسطول كبير بقيادة الوالي البرتغالي العام من"جوا" نحو مضيق "هرمز"، فتقرّر رفع الحصار عن المنطقة. وفي تلك الأثناء استولت القوات العثمانية على جزيرة "كيشم" التي كانت تشتهر بثراء أهلها، إضافةً إلى بعض المناطق المجاورة لها. ويسند بعض المؤرخين العثمانيين مثل "عالي" وبَجُويْلُو الشائعات التي انتشرت بشأن حصول "بِيرِي رئيس" على رشوة من أجل رفع الحصار عن قلعة "هرمز" إلى الحقد الذي كان يملأ قلب حاكم البصرة "قوباد بَاشَا"، ويشكّون في أن يكون "بِيرِي رئيس" قد رفع الحصار عن قلعة "هرمز" في مقابل حصوله على بعض المال.

ولقد أقدم "بيري رئيس" على رفع الحصار عن قلعة "هرمز" والانسحاب إلى الخليج العربي في الوقت المناسب، ذلك لأن أي تأخير كان سيطرأ على هذا الإجراء كان سيؤدي إلى خسارة موجعة من الأسطول البرتغالي الذي كان يتمتع بالعديد من المزايا التي ترجّح كفته. وفي الواقع، فإن الأسطول البرتغالي وصل إلى قلعة "هرمز" لتقديم المساعدة لحاميتها، إلا أن الأسطول العثماني بقيادة "بيري رئيس" كان قد قطع مسافة كبيرة نحو الخليج العربي عندما وصل الأسطول البرتغالي إلى مضيق "هرمز"، وكان هذا قرارًا صائبًا من جانب "بيري رئيس". وعندما وصل "بيري رئيس" إلى البصرة طلب المساعدة من "قوباد بَاشَا". لكن هذا الأخير رفض تقديم العون له قائلًا:

"لقد ظلمتَ المسلمين ونهبت أموالهم!"

كما رغب في انتزاع السفن والبضائع التي كانت بحوزة "بيري رئيس". وفي تلك الأثناء وصلت إلى "بيري رئيس" -بينما كان في الخليج العربي- معلومات مفادها أن البرتغاليين يعتزمون إغلاق مدخل الخليج. وكانت بعض سفنه تحتاج إلى الصيانة في ذلك الوقت. كما أن جدّافي السفينة تفرّقوا، ولم يرغب الجنود في ركوب السفن. وأما "بيري رئيس" ففضّل الانطلاق بسفنه عوضًا عن الانتظار عند "البصرة"، ومن ثَمّ أبحر على رأس أسطول صغير مكون من ثلاث سفن، وترك بقية السفن الأخرى في البصرة. ونجح في تخطّي الحصار الذي فرضه البرتغاليون في الخليج العربي، إلا أن إحدى سفن أسطوله دُمّرت بالقرب من جزر البحرين، واستطاع بالرغم من ذلك الوصول بالسفينتيْن الأخريين إلى مصر. إلا أنه كانت هناك مفاجأة غير سارّة تنتظره في مصر. ذلك لأن "قوباد بَاشَا" كان قد نشر شائعات مغرضة ضد "بيري رئيس" في مصر كذلك، كما أذاع أنه ترك الأسطول العثماني في موقف حرج وهرب ببعض السفن. وعليه، وصلت هذه الأنباء إلى السلطان سليمان الذي كان متواجدًا في حلب بسبب غزوته إلى "ناخيتشيفان"، فغضب كثيرًا بسبب هذه التصرفات التي لم تكن مناسبة لسياسة

دولتـه، وأمـر بإعـدام "بِيـرِي رئيس". وحبسـه وَالِي مصـر "داود بَاشَـا" في أحـد السـجون، ثـم أعدمـه تنفيـذًا للأوامـر الـواردة لـه مـن السـلطان، وصـادر أموالـه وبضائعـه (٩٦٠هـ / نهاية عـام ١٥٥٣م). وعلى الرغم من أن هـذا البحّـار العظيـم راح ضحيـة إهماله في إنجاز المهام المكلف بها، إلا أن مؤلفاتـه في علـم البحار كانت بمثابـة المرشـد الذي قـاد علم البحر والخرائـط العثمانية علـى مدار قرون طويلة.



السلطان سليمان برسم ماثيو باغاني
(Mathio Pagani)

وبعـد أن غـادر "بِيـرِي رئيـس" البصـرة، عُيّـن حاكـم القطيف السـابق "مـراد رئيس" قائدًا لأسـطول السـويس المصـري. وجـاءت أوامـر إلـى هـذا الأخيـر بالبقاء علـى رأس الأسـطول في البصـرة لفتـرة مـن الوقت مع الأخـذ بعين الاعتبار الأنشـطة التـي كان يزاولها الأسطول البرتغالي في المحيط الهندي والخليج العربي. وقد حوصر الأسطول المصـري فـي الخليج العربـي، إلا أن قائده الجديد "الرئيس مراد" انتهز إحدى الفرص السـانحة أمامه واتخذ قرارًا بالعودة إلى ميناء السـويس بأسـطول مكون مـن ١٥ قادسًـا وسـفينتيْن. لكن بعد أن وصل أسـطوله إلى مضيـق هرمز، قابله الأسـطول البرتغالـي. واندلعـت اشـتباكات عنيفة بيـن الجانبين اسـتمرت حتى منتصـف الليـل. ولـم يسـتطع الأسـطول المصري الصمـود كثيرًا فـي مواجهة نظيـره البرتغالي، وأُصيبت معظم السـفن العثمانية بقذائـف المدفعية البرتغالية، ونجـح "مـراد رئيس" في العودة بما بقي في يده من سـفنٍ إلـى الخليج العربي مسـتغلًا ظلمة الليـل الحالكة. ولقد تكبّـد الطرفان العثماني والبرتغالي خسـائر كبيـرة فـي هـذه المعركـة. وكان مـن بيـن شـهداء الأسـطول العثمانـي قائـدان

يُدعيان "سلمان رئيس" و"رجب رئيس". كما سقطت إحدى السفن العثمانية في أيدي البرتغاليين. ولمّا وصل "مراد رئيس" إلى البصرة بصعوبة بالغة، وصلت أنباء هذه المعركة إلى الحكومة العثمانية في إسطنبول، فعُزل "مراد رئيس" من منصبه كقائدٍ للأسطول المصري عام ١٥٥٢م. وعليه، فقد حوصر الأسطول العثماني مرةً أخرى في الخليج العربي. ونجا "مراد رئيس" من الإعدام بأعجوبة، ووافته المنية عام ١٦٠٣م. واليوم يوجد قبره في جزيرة "رودس". وبعد أن تعرّض الأسطول العثماني للهزيمة من الأسطول البرتغالي، وعَزل "مراد رئيس" من منصبه بدأت الإدارة العثمانية تبحث عن قائد جديد للأسطول يستطيع إخراجه من هذا المأزق. وبعد البحث والتمحيص، أُختير "سيدي علي رئيس" قائدًا لأسطول السويس بعد أن برز اسمه كأكثر شخصية لديها معلومات عملية ونظرية حول طبيعة العمل في البحر (٢ كانون الأول/ديسمبر ١٥٥٣م).

قضية خانية القِرْم: "صاحب كِيرَايْ خان"

قبل أن يخرج السلطان سليمان في ثالث وآخر غزواته إلى إيران، أقدمت "دوقية موسكو" على القيام بعملية عسكرية جديدة من شأنها أن تتمخّض عنها نتائج مهمة في المستقبل في المنطقة الواقعة شمال البحر الأسود حتى بحر "قزوين"، وهي المنطقة التي كان يولي العثمانيون اهتمامًا بها ليس بشكلٍ مباشر، ولكن بواسطة خانات القِرْم. وكان نجم "دوقية موسكو" قد بدأ في البزوغ في ذلك التوقيت، وكانت تسير في طريقها نحو أن تكون قوة عظمى في تلك المنطقة. فقد قضى الروس على خانية قازان بتاريخ ٢ تشرين الأول/أكتوبر ١٥٥٢م، وبدؤوا في التدفق جنوبًا نحو بحر قزوين. ودلّت هذه الأحداث على أن خانية القِرْم كانت تعيش فترة حسّاسة للغاية من تاريخها. وكان السلطان سليمان مهتمًّا منذ وقت طويل بشؤون خانية القِرْم. والسبب في ذلك أنه قضى فترة من فترات حياته مقيمًا في مدينة "كَفَه" عندما كان أميرًا قبل اعتلاء عرش السلطنة، ولذلك كان على علم ببواطن الأمور في ذلك الإقليم، كما أنه صار على دراية كاملة بشؤون تلك المنطقة.

وكان من المثير أن يتبع السلطان سليمان سياسة تتبنّى فكرة عدم السماح لخانية القِرْم بالانفراد بقراراتها بعدما اعتلى عرش السلطنة. ذلك لأن والده السلطان سليم الأول كان قد استخدم القوى المتواجدة في تلك المنطقة كمعينٍ له في صراعه على السلطة، حتى إنه استطاع الانقلاب على والده، والوصول إلى العرش بدعم من خانات القِرْم، مما جعل هذه المنطقة تتمتع بأهمية حسّاسة للغاية بالنسبة للعثمانيين. وعليه، فبإمكاننا التخمين أن السلطان سليمان سيُقدم على تنفيذ بعض الخطوات من أجل ربط خانية القِرْم بقوة مركز دولته بمعنى الكلمة كإجراءٍ طبيعي في ظلّ الظروف المحيطة بإمبراطوريته. وفي الواقع، فقد بدأت سلسلة الأحداث المتتالية بمقتل خان القِرْم "محمد كِيرَايْ" عام ١٥٢٣م. تبع ذلك قيام مجموعات "نوجاي" بقتل جنود قبيلة القِرْم. ثمّ أرسل السلطان سليمان أحد أبناء "مينجلي كِيرَايْ" ويُدعى "سَعَادَةْ كِيرَايْ" إلى القِرْم كخانٍ لها يرافقه ٥٠٠ جندي من الإنْكِشَارِيّة مجهزين بالأسلحة. وقد دعمت قبيلة "شيرينلر" خان القِرْم الجديد باعتبارها من أقوى العشائر التي رحّبت بحكم العثمانيين في القِرْم. إلا أن هذا الدعم أفضى إلى نشوب انشقاقات بين صفوف أفراد هذه القبيلة، حتى نشب صراع بين الطرفين المعارضين. وعلى الرغم من رغبة "سَعَادَةْ كِيرَايْ" في توطيد الأمن والاستقرار في القِرْم، إلا أنه تعرّض لهزيمة على يد المعارضين من أبناء قبيلة "شيرينلر" الذي التفّوا حول "إسلام كِيرَايْ" نجل الخان السابق "محمد كِيرَايْ الأول". وبعد هذه الهزيمة، لجأ "سَعَادَةْ كِيرَايْ" إلى إسطنبول عام ١٥٣٢م، وأخبر السلطان أنه تنازل عن حكم الخانية في القِرْم. وكان السلطان "سليمان يعرف "سَعَادَةْ كِيرَايْ" منذ أن كان أميرًا، فمنحه قصرًا في منطقة "أيوب" بإسطنبول، وخصص له دخلًا سنويًّا وعطايا أخرى. وقد عاش "سَعَادَةْ كِيرَايْ" في إسطنبول حتى تُوفي. واستمر حكم "إسلام كِيرَايْ" في القِرْم خمسة أشهر بعد هروب "سَعَادَةْ كِيرَايْ"، لكن الدولة العثمانية لم ترضَ عن هذا الوضع، فاضطر "إسلام كِيرَايْ" لطلب العفو من السلطان سليمان. وعليه، فقد عيّن السلطانُ "صاحب كِيرَايْ" شقيق "سَعَادَةْ كِيرَايْ" وابن "مينجلي كِيرَايْ" الثالث حاكمًا على خانية القِرْم (ربيع الأول ٩٣٩هـ - تشرين الأول/أكتوبر ١٥٣٢م)، وكلّف "إسلام كِيرَايْ" ليكون نائبًا له.

وعندما توجّه "صاحب كِيرَايْ" إلى القِرْم، وجد نفسه داخل صراع ناشب بالفعل سواء شاء أم أبى. والسبب في ذلك أن "إسلام كِيرَايْ" قائد الجناح المستقل من قبيلة "شيرينلر (*Şirinler*)" كان يشعر بضيق وغضب شديدين لانتزاع "صاحب كِيرَايْ" سلطته من يديه بدعم من العثمانيين، إذ كان "إسلام كِيرَايْ" يصرّ على الحفاظ على حقوق عشيرته والدفاع عنها. فأدرك "صاحب كِيرَايْ" وقتئذ أنه سيدخل في صراع مع "إسلام كِيرَايْ" عاجلًا أم آجلًا، وشعر أنه بحاجة إلى التقرّب من قبيلة "نوجايلر (*Nogaylar*)" للتصدّي لنفوذ قبيلة "شيرينلر". ذلك لأن قبيلة "نوجايلر" كانت تتواجد في السهوب الواقعة خارج منطقة القِرْم. وكانت هذه القبيلة على ما يبدو أكثر الحلفاء إفادةً ضد "إسلام كِيرَايْ" المتواجد عند مضيق "أور - قابيسي (*Or-kapısı*)"، والذي كان ينسحب إلى السهوب عند اللزوم. وكان "صاحب كِيرَايْ" يسعى لترسيخ دعائم سلطته المركزية في القِرْم. وبعد أن قُتل "إسلام كِيرَايْ" بعد ذلك بفترة على يد "باقي بَكْ" قائد قبيلة "مانجيت"، بدأ "صاحب كِيرَايْ" في الاهتمام بأمر "باقي بَكْ". وكان هذا الأخير ابن شقيق "صاحب كِيرَايْ"، حيث برز اسمه بين نبلاء القِرْم بفضل شجاعته وجسارته، ظلّ يشكّل خطرًا على "صاحب كِيرَايْ" حتى قُتل عام ١٥٤١م. وقد استمر الصراع بين هذين الطرفين لفترة من الوقت إلى أن أُبرم اتفاق فيما بينهما، لدرجة أنهما خرجا في غزوة مشتركة إلى موسكو. لكن "باقي بَكْ" قُتل بعدما تعرّض لهجوم من "صاحب كِيرَايْ" وهما في طريق العودة من هذه الغزوة. وبعد مقتل "باقي بَكْ"، بدأ "صاحب كِيرَايْ" في التخطيط بشكلٍ جدّي من أجل تحقيق رغباته في ترسيخ دعائم سلطته الكاملة في القِرْم، وتأسيس نظام مركزي للإدارة بها. وبالرغم من أن "صاحب كِيرَايْ" تقرّب في البداية إلى قبيلة "نوجاي"، إلا أنه اتحد مع قبيلة "شيرينلر" عندما فكّر في التخلص من "باقي بَكْ". حتى إنه تحالف معهم لمهاجمة قبيلة "نوجاي" التي لم تكن تعترف بهذه السلطة المطلقة. وشهد عاما ١٥٤٦ - ١٥٤٧م وقوع حادثة في تاريخ القِرْم أُطلق عليها "غضب قبيلة نوجاي". وقد هُزمت القبيلة أمام أسلحة الخان "صاحب كِيرَايْ" النارية.

لقد كان السلطان سليمان يتابع عن كثب هذه الصراعات التنافسية التي كانت تشهدها خانية القِرْم. ذلك لأن الدولة العثمانية كانت تسعى لتحقيق بعض المآرب السياسية التي تصب في مصلحتها مثل تنصيب حاكم على خانية القِرْم من أسرة "كِيرَايْ" ليكون تابعًا لها ولا يثور عليها، والاستفادة من قوات القِرْم في الغزوات التي يقوم بها الجيش العثماني إلى مولدوفا والمَجَر وإيران، والحيلولة دون تحوُّل خانية القِرْم إلى تهديدٍ يهزّ عرش السلطان في إسطنبول. وكانت الدولة العثمانية تشعر بالقلق إزاء حصول خانية القِرْم على إرثها في عشيرة "إيديل" المنسوبة للقبيلة الذهبية، وتتحد مع قبيلة "نوجاي" وتشكّل دولة مستقلة. وفي الحقيقة فإن "صاحب كِيرَايْ" كان يعارض فكرة أرستقراطية القبائل، ولذلك سعى لتأسيس إدارة مطلقة في القِرْم على غرار الطراز العثماني. وكان الهدف الرئيسي من الإجراءات التي نفذّها "صاحب كِيرَايْ" في القِرْم هو تكوين خزينة تمتلك مصادر دخل منتظمة ووفيرة لتيقّنه من أن هذه الخزينة هي الشرط الأساسي لتكوين دولة مركزية كما كان يطمح. وكان خانات القِرْم يحصلون على خراج سنوي من جيرانهم، أي موسكو وليتوانيا وبولندا ومولدوفا. هذا بالإضافة إلى أن "صاحب كِيرَايْ" استطاع ملء خزينته بثروة كبيرة اكتسبها من الغزوات التي قام بها. حتى إنه سعى لتوفير الأمن للقوافل التجارية القادمة من آسيا الوسطى وإيران في الغزوات التي قام بها في أستراخان وشركيسيا. إلا أن قوة "صاحب كِيرَايْ" وعظمته تسببت في نشوب حالة من العداء ضده بين وزراء البلاط العثماني، لا سيما وأنه كان يتمتع بمكانة خاصة لدى السلطان سليمان. ولم يصمت "صاحب كِيرَايْ" أمام هذه الحالة من العداء من جانب الوزراء العثمانيين. حتى إنه بعد أن استولى على "أستراخان" وألحق هزيمة بقبيلة "نوجاي"، رفض إرسال قوات إضافية لمساندة الجيش العثماني في الغزوة التي قام بها السلطان سليمان إلى إيران. وقد أفضت هذه الواقعة إلى اتهام الوزراء العثمانيين للخان "صاحب كِيرَايْ"، كما حاولوا تقليل شأنه لدى السلطان سليمان وإسقاطه من نظره. وفي تلك الأثناء طلب "صاحب كِيرَايْ" من الإدارة العثمانية تعيين "دولت كِيرَايْ" المقيم في إسطنبول

حاكمًا على خانية "قازان" بعد وفاة حاكمها "صفا كِيرَايْ". وكان يرغب في تحقيق هذا المطلب ليتخلّص من منافس له على خانية القِرْم. لكن الحكومة العثمانية استغلّت هذه الفرصة، وأرسلت "دولت كِيرَايْ" إلى القِرْم ليكون حاكمًا عليها، وأظهرت وكأنه عُيّن حاكمًا على خانية قازان. وعندما وصل "دولت كِيرَايْ" إلى القِرْم، تظاهر بأنه ذاهبٌ إلى قازان، وانتظر في مدينة "أكيرمان" "صاحب كِيرَايْ" الذي كان قد خرج في غزوة ضد الشراكسة. وفي نهاية الأمر بقي "صاحب كِيرَايْ" وحيدًا بعد أن فارقه رجاله وجنود الإِنْكِشَارِيّة الذين كانوا يرافقونه. وعندما خرج متوجّهًا إلى إسطنبول لتقديم فروض الطاعة والولاء للسلطان سليمان، أُلقي القبض عليه وقُتل (شوال ٩٥٨هـ - تشرين الأول/أكتوبر ١٥٥١م). لكن هذه الأحداث صبّت في المقام الأول في مصلحة الروس، إذ إنهم سعدوا كثيرًا بالقضاء على "صاحب كِيرَايْ" الذي كان يعتبر ألدّ أعدائهم. حتى إنهم فكّروا في استغلال الظروف المواتية بعد واقعة قتله. وحرّض "إيفان (*Ivan*) الرابع" قيصر روسيا "الشاه علي" للهجوم على خانية القِرْم للمرة الثانية عام ١٥٥١م. كما هزم قوات "دولت كِيرَايْ" وهي في طريقها للإغارة على موسكو، واستولى على قازان بتاريخ ٢ تشرين الأول/أكتوبر ١٥٥٢م. وهكذا صادفت الدولة العثمانية منافسًا جديدًا لم تكن تتوقعه عند حدودها الشمالية.

الغزوة الأخيرة على الصفويين واتفاق السلام

لقد آثر السلطان سليمان الخلود إلى الراحة لفترة طويلة إثر تعرضه لمرض منذ عودته من غزوته الثانية على إيران. وبدأ في قضاء وقته في جولات الصيد الطويلة في المناطق القريبة من العاصمة إسطنبول وبالأخص في ولاية أَدِرْنَه. كما أنه كان يتابع عن كثب الأحداث التي سردناها أعلاه. وفي تلك الأثناء بدأت بعض الشائعات تصل إلى مسامعه بسبب عدم خروجه في أي غزوة منذ وقت بعيد. ولقد بادرت "خُرّم سلطان" وزوج ابنتها الصدر الأعظم "رستم بَاشَا" في التفكير في بعض المخططات للتخلّص من الأمير مصطفى الذي كان يتولّى شؤون الإدارة في ولاية "أَمَاسْيَا".

وأما السلطان سليمان فقد كان يذهب في كثير من الأحيان إلى الجامع الكبير الذي كلّف المعماريّ الشهير "سنان أغا" ببنائه. وكان يعتبر نفسه حاميًا لعرين العالم الإسلامي، و"خليفة" مصممًا على مكافحة النظم والأفكار المخالفة للعقيدة السُنيّة. وقد ازدادت الحساسية الدينية لديه منذ نشوب الصراع مع الدولة الصفوية الشيعية. وقد وصفه "لطفي بَاشَا" بلقبيْ "إمام العصر" و"الخليفة" في رسالة الخلافة التي ألّفها. كما ازدادت مظاهر الحياة الدينية لديه في الفترات التي تولّى فيها كلٌّ من "كمال بَاشا زاده" و"جيفي زاده محمد" و"أبو السعود أفندي" منصب شيخ الإسلام. وفي عهد السلطان سليمان بدأ المذهب الحنفي في اكتساب صفة رسمية بوصفه المذهب الرئيسي للدولة العثمانية. وبدأ القائمون على سنّ القوانين في شرح الإجراءات العرفية الواردة في اللوائح القانونية في ظلال الشريعة الإسلامية. وشهدت تلك الحقبة تكثيف الاجتهادات بين العلماء حول مشروعية المخصصات المالية من أجل تشكيل الأوقاف ودعمها. ولقد تمكّن الشيخ "أبو السعود أفندي" من إيجاد تحليلات وسطية أراحت إداريّي الدولة. إلا أن هذه التحليلات لم ترضِ بعض الجهات الأخرى. وبدأت الحساسيات الدينية في التأثير على الأوساط الثقافية والعلمية في الدولة العثمانية مع مرور الوقت بتأثيرٍ من الإمام "بيرجيفي (*Birgivi*)" (تُوفي ٩٨١هـ / ١٥٧٣م).



"أبو السعود أفندي" وهو يُفتي

ولقد شهد ذلك الوقت انتشار شائعات بشأن ضرورة تنازل السلطان سليمان عن عرش السلطنة لصالح ابنه الأكبر الأمير مصطفى الذي كان يتولّى شؤون إدارة ولاية "أَمَاسْيَا". ولم يكن الأمير مصطفى الذي قارب عمره الأربعين عامًا على ما يبدو سيقبل بسهولة بتلميع صورة أخويه من زوجة أبيه الأمير "سليم" أو "بايزيد" لخلافة والده على العرش. وكانت تراوده بعض الأفكار بتحريض من حاشيته بشأن أن حالة والده الصحية لم تعد تسمح له بإدارة الدولة كما يجب، وعليه فيجب أن يتنازل له عن العرش كما فعل جدّه السلطان "سليم" قبل ذلك. وكانت هذه الأوضاع تصب في مصلحة الثنائي "رستم بَاشَا" و"خُرّم سلطان" التي كانت تسعى بشتّى الطرق للتخلّص من الأمير مصطفى لتنصّب أحد أبنائها سلطانًا مكان والده. وسنرى أن هذه الشائعات ستؤدي إلى سقوط الأمير مصطفى من عيني والده السلطان سليمان الذي كان يعاني من مشاكل نفسية ناتجة عن مرضه.



رستم باشا

ولقد تم التخطيط لغزوة ثالثة نحو الأراضي الإيرانية لتحقيق توازن متساوٍ مع ردود الأفعال الغاضبة جرّاء واقعة مقتل الأمير مصطفى الذي كان يحظى بحب كبير في القصر. وستثبت هذه الغزوة أن السلطان سليمان لا يزال يتمتع بقدرة كبيرة على إدارة دولته المترامية الأطراف على الرغم من تقدّمه في السن.

لقد تلا سفير البندقية "تريفيسانو (*Trevisano*)" الذي كان متواجدًا في إسطنبول إبّان غزوة "ناخيتشيفان" تقريرًا في مجلس الشيوخ ضمّ بعض

المعلومات المثيرة للجدل حول السلطان العثماني وأسرته. وتشير هذه المعلومات إلى أن والدة الأمير مصطفى أكبر أبناء السلطان الذين على قيد الحياة من أصل شركسي. وأما "خُرّم سلطان" فهي الزوجة الرسمية للسلطان، وعيناه لا ترى أحدًا غيرها. هذا إضافةً إلى أن السلطان سليمان لم يجامع أي امرأة أخرى منذ أن عُقد قرانه عليها بشكل رسمي. وابنه الأمير "سليم" يتصف بجسده الضخم وروحه المائلة إلى المرح والتسلية، وأما ابنه الأمير "بايزيد" فجسده أقل وزنًا من شقيقه "سليم"، كما أنه مهتم بالأدب. إلا أن هذين الأخوين لم يستطيعا الظفر بقلوب الشعب وطبقة الجنود الإنْكِشَارِيّة كشقيقهما الأكبر الأمير مصطفى. فيما كان الأمير "جهانكير" ضعيفا في إدارة شؤون الدولة، لكنه كان في الوقت نفسه مرحًا ومحبًا للدعابة. ولقد لعبت مشاكله الصحية وبنيته الجسمانية الحدباء دورًا كبيرًا في أن يولي والداه اهتمامًا خاصًا به.

وكان السلطان سليمان يحب ابنته "مهرماه" زوجة الصدر الأعظم "رستم بَاشَا" كثيرًا. وللسبب ذاته استطاع "رستم بَاشَا" الوصول إلى مناصب عليا في الدولة. ولم يكن السلطان سليمان يهمل أمور دولته وشؤونها طرفة عين، لكنه بعد أن أَلَمَّ به المرضُ ينتظر الصدر الأعظم ليأتيه في غرفته بالقصر كي ينقل له الموضوعات ذات الصلة بشؤون الدولة، وذلك بعد أن كان يذهب إلى مبنى الديوان ويتابع القضايا المنظورة، وأمور الدولة عبر نافذة خُصّصت لهذا الغرض. وكان الصدر الأعظم "رستم بَاشَا" يتولّى القيام بهذه الأمور. وكان بإمكانه جعل السلطان سليمان يفعل كل شيء يريده. ذلك لأنه كان يتصرّف بحذر شديد، مما أكسبه تقدير السلطان سليمان واحترامه. لكن في الوقت نفسه لم يستطع "رستم بَاشَا" التقرّب إلى السلطان بقدر سلفه إبراهيم بَاشَا. حتى إنه لم يكن بمقدوره دخول القصر، والخروج منه إلا بإذن من السلطان.

ويروي سفير البندقية أنه ذهب إلى مقابلة السلطان قبل خروجه في غزوته، وأنه -أي السلطان- سرد بعض الجمل لإظهار صداقته لجمهورية البندقية

على غير عادته بالتلفّظ ببعض الكلمات، وهي ما استقبله كل من كان حاضرًا بتعجب ودهشة لعدم تعوّدهم على مثل هذه الفعل من السلطان. ويذكر السفير أنه تجاذب أطراف الحديث مع "رستم بَاشَا" لمرات عديدة، مشيرًا إلى أن هذا يعتبر شرفًا كبيرًا بالنسبة له. وبالرغم من أن كافة هذه الروايات تعتمد على مشاعر السفير وأحاسيسه، فإنها تضيء لنا الدرب لاكتساب معلومات بدرجة ما عن السلطان والقصر. وتؤكّد هذه المعلومات لنا أن الثلاثي "رستم بَاشَا" - "مهرماه" - "خُرّم سلطان" بدأ نفوذهم في القصر يظهر جليًّا للعيان مع مرور الوقت. ولقد أورد سفير البندقية بعض الملاحظات المثيرة بشأن طريقة تنظيم جيش السلطان سليمان أثناء انطلاقه إلى غزو "ناخيتشيفان (*Nahçıvan*)".

كانت تلك الأثناء تشهد بعض المناوشات بين الجانبين العثماني والصفوي على الحدود فيما بينهما، إلا أن هذه المشاكل لم تكن عويصة لدرجة ألّا تُحلّ بالطرق الدبلوماسية. وكان من بين تلك الأحداث أن استولى شاه إيران "طهماسب" على ولاية "شيروان (*Şirvan*)" بالكامل عقب وفاة برهان علي سلطان مطلع عام ١٥٥٠م، ثم بعد ذلك وفي شهر أيار/مايو من العام نفسه شرع في إعداد العدة لمهاجمة الأوزبك بعدما أغار حاكمهم "عبد اللطيف خان" وأميرها "باراك (*Barak*) خان" على إقليم "خراسان (*Horosan*)" ونهبا مدينة "هرات" وما حولها. إلا أنه سرعان ما التقط أنفاسه بعد عودة خانات الأوزبك إلى "بخارى". ثم بعد ذلك نظّم هجومًا على "حسن بَكْ أوغلو درويش محمد" أحد حكام "شيروان". وقد دخل الشاه "طهماسب" أراضي دولة "شكي" بعد انضمام "باجراتلي ليفند خان" حاكم منطقة "ماخيتي" الجورجية، وحاصر قلعة "جلسنجوراسن" التي احتمى بها "درويش محمد خان"، واستطاع في نهاية المطاف الاستيلاء عليها على الرغم من صعوبة تلك المهمة. وأما محمد بَكْ فقد هرب من القلعة، إلا أنه أُلقي القبض عليه وقُتل بعدها. وعليه، سقطت دولة "شكي" بشكل كامل في يد الشاه "طهماسب"، إذ أسند الشاه إدارة هذه الدولة إلى "تويجون بَكْ القاجاري". وبينما كان الشاه "طهماسب" منشغلًا بشؤون

"شكي"، كان إِسْكَنْدَرْ بَاشَا المعيّن في عام ١٥٤٨م حاكمًا على ولاية "وَانْ" ينفّذ بعض الخطط الهجوية. فقد أغار على "خوي" وفتحها في فصل الشتاء قبل عودة الجيش العثماني إلى إسطنبول، وأردى "دونبوللو حاجي سلطان" قتيلًا. ثم بعد ذلك هاجم مدينة "روان"، وأحرق سوقها، وخطف حاكمها الصفوي. وقد أُسندت مهام الحكام في ولاية "أَرْضُرُومْ" إلى إِسْكَنْدَرْ بَاشَا عام ١٥٥١م، إذ همّ بالاستيلاء على المناطق الخاضعة لحكم الأتابكة. ونجح في حصار مدينة "أردانوتش" والسيطرة عليها يوم الجمعة الموافق ١٣ أيار/مايو عام ١٥٥١م. ثم سار ناحية الشرق، وفتح المناطق الواقعة بين مدينتي "كينزو - داموِل (*Kinzo-Damol*)" و"أرضاهان" على امتداد نهر "كور (*Kür*)". وتشير المصادر التاريخية الجورجية إلى أن إِسْكَنْدَرْ بَاشَا بسط نفوذه على "أردانوتش"، ثم استولى على دولة "بارناك" حتى مدينة "آرصيان (*Arsıyan*)"، كما أضرم النيران في جميع الأماكن القريبة من إقليم "آرتان (*Artan*)"؛ أي ما يُعرف اليوم بـ"أرضاهان (*Ardahan*) - جوله (*Göle*) - هاناك (*Hanak*)". ولقد أمر إِسْكَنْدَرْ بَاشَا بترميم الجامع القائم من أيام حكم قبيلة "آق قويونلو" التركمانية بعد فتحه "أردانوتش"، وأوقف مصبغة وعددًا من الدكاكين لخدمة هذا الجامع. ولقد اتخذ إِسْكَنْدَرْ بَاشَا من مدينة "أردانوتش" مركزًا لولايته.

وما إن تلقّى "طهماسب" نبأ محاصرة إِسْكَنْدَرْ بَاشَا لمدينة "أردانوتش" وطلب ملك جورجيا "كَيْخُسْرَوْ الثاني" الحصول على الدعم، حتى فارق "شكي"، وسار بجيشه لمهاجمة إِسْكَنْدَرْ بَاشَا. وفي الطريق، قدّم "كَيْخُسْرَوْ الثاني بن جورجورا" فروض الطاعة والولاء لشاه إيران، فيما منحه "طهماسب" منطقتيْ "آهيلكليك" و"توموك". وبهذه الطريقة نجح "طهماسب" في إقامة منطقة عازلة في مواجهة الدولة العثمانية من خلال إلحاق بعض المدن بالمناطق المتبقية في يد هذا الحاكم الجورجي. ولقد دخل الشاه بعد ذلك دولة "كارتلي" في جورجيا، ثم عاد إلى "قره باغ" مع اقتراب فصل الشتاء. وفي تلك الأثناء جاء مبعوث برتغالي لمقابلة الشاه عام ١٥٥١م، وقدّم إليه بعض الهدايا.

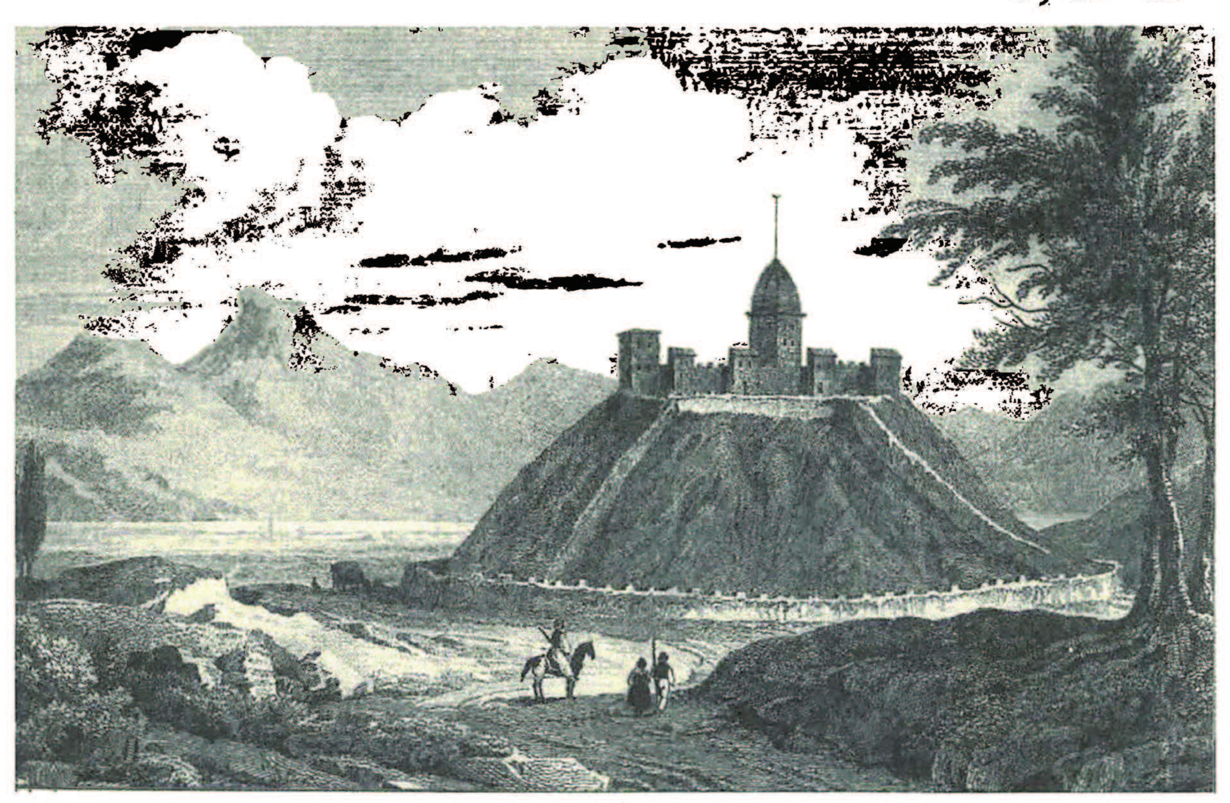
وعلى ما يبدو فقد زوّد هذا المبعوث الشاه ببعض المعلومات حول مستجدات الأوضاع في القارة الأوروبية. ذلك لأن العلاقات الثنائية بين الدولة العثمانية وإمبراطورية هابسبورج عادت إلى التوتر كما ذكرنا أعلاه، مما أدّى إلى وقوع اشتباكات على الحدود بين الجانبين. وكانت هذه الأوضاع تعني أن الشاه "طهماسب" بإمكانه التحرّك بطريقة أكثر حرية على الحدود الشرقية للدولة العثمانية.

وتذكر المصادر التاريخية الصفوية أن مبادرة الشاه "طهماسب" للاعتداء على الأراضي العثمانية بدأت بخطاب أرسله إلى إسطنبول. فتشير هذه المصادر إلى أن الشاه كتب خطابًا حميميًا إلى عاصمة الدولة العثمانية، وأعرب عن شكواه من الهجمات التي شنّها إِسْكَنْدَرْ بَاشَا على مدينتيْ "خوي" و"روان" ومجابهته للدولة الصفوية، مضيفًا أنه -أي إِسْكَنْدَرْ بَاشَا- قد جاوز حدوده بإقدامه على ارتكاب هذه الأفعال. ولقد تسبب هذا الخطاب في انزعاج السلطان سليمان كثيرًا، إذ بعث إلى شاه إيران ردًّا غاضبًا يبلغه فيه أنه سيغير بجيشه على أراضي العجم (أي إيران). مما دفع "طهماسب" في النهاية إلى إصدار أمر بحشد جيوشه لمواجهة أي هجوم عثماني محتمل كما كان واضحًا من خطاب السلطان سليمان. ولقد جمع "طهماسب" جيوشه عند موقع مرعى "آقمانجان (*Akmangan*)"، بحيث كان يرغب في التقدّم بقواته قبل الجيش العثماني. ولهذا السبب قسّم جيشه إلى أربعة أقسام، إذ أرسل القسم الذي كان يقوده "سافيلي معصوم بَكْ" إلى مدينتيْ "أرجيش" و"بارجيري" (مرادية)، والقسم الذي كان يقوده "شاهفردي القاجاري" و"أدهم بَكْ الرومي" إلى مدينة "بسين"، والقسم الذي كان يقوده "ذُو الْقَادِرلي إبراهيم بَكْ" إلى عراق العجم، والقسم الذي كان يقوده "بيرام بَكْ القاجاري" والأتابك الجورجي "كَيْخُسْرَوْ الثاني" إلى ولاية "داف"؛ أي موطن الأتابكة القديم وهي مناطق "أرضاهان - جوله - أردانوتش - ليوانه - أولتو - تورتوم". وكان يأمل "طهماسب" من خلال هذه الهجمات في استعادة الأراضي التي سلبها منه العثمانيون. إلا أنه أدرك أن هذه المهمة صعبة للغاية، ورأى أن نهب وتخريب هذه المدن والأقاليم أيسر بالنسبة له.

وانطلق "طهماسب" على رأس جيشه من مرعى "آقمانجان" ووصل إلى مدينة "أليشجيرد" يوم ٢٨ آب/أغسطس عام ١٥٥٢م.

وقد شهدت هذه الأثناء إغارة "صافيلي (*Sâfili*) معصوم بَكْ" على المناطق المجاورة لولاية "أرجيش" ونهبها، إلا أنه لم يستطع الاستيلاء على قلعتها. ثم بعد ذلك عاد إلى "إيليشجرد"، وانضم إلى ركب الشاه "طهماسب"، وعرض عليه الأمر. وكما أن هذا القسم الأول من جيوش الشاه هجم على مناطق "أخلاط" و"عادلجواز"، إلا أنه لم يتمكّن من الوصول إلى مبتغاه، وعاد أدراجه إلى "إيليشجرد"، فقد أغار القسم الذي كان يقوده "شاهفردي القاجاري" و"أدهم بَكْ الرومي" على مدينة "بسين"، إلا أنهم لم يستطيعوا تحقيق أي انتصار بسبب مقاومة الحاكم العثماني "مراد" لقواتهم، فأضرموا النيران في المنطقة، وعادوا مجددًا إلى جوار الشاه. عقب ذلك تحرك الشاه من "إيليشجرد" ترافقه القوات المحتشدة حوله، ووصل إلى "أخلاط"، وعمد إلى إحراق المناطق المجاورة لبحيرة "وَانْ" على مدار شهر كامل من آذار/مارس إلى نيسان/أبريل عام ١٥٥٣م. ثم بعد ذلك انشغل بالتجهيز لفرض حصار على قلعتيْ "أرجيش" و"وَانْ". كما أنه توجّه بعد ذلك إلى "أخلاط" وحاول الاستيلاء على قلعتها، وبينما هو كذلك وصلته أنباء إلحاق إِسْكَنْدَرْ بَاشَا هزيمة بقوات "كَيْخُسْرَوْ الثاني" وحاكم دولة شكي "تويجون بَكْ"، فأرسل ابنه "إسماعيل مِيرْزَا" و١٣ قائدًا من نبلاء دولته على رأس جيش جرّار ضمّ في الوقت نفسه ألف حارس و٦٠٠ حارس آخر من "تاخيتشيفان" إلى ولاية "أَرْضَرُومْ" شرق الأناضول. وكان إِسْكَنْدَرْ بَاشَا يحتمي داخل قلعة "أَرْضَرُومْ"، ونجح في هزيمة فرع الجيش الصفوي الذي كان يقوده "كَيْخُسْرَوْ الثاني". ومع اقتراب فصل الشتاء آثر إِسْكَنْدَرْ بَاشَا السماح لبعض جنوده بمغادرة القلعة لعلمه أنها لن تستطيع استيعاب المزيد من الجنود. وما إن وصلت هذه الأنباء إلى الجيش الصفوي، حتى أرسل قادتُه سرّية استطلاعية إلى مشارف القلعة، وخبأوا بقية الجيش خلفها. ولم يكن إِسْكَنْدَرْ بَاشَا على دراية بهذه الفخ، فخرج من القلعة لمواجهة هذه السرّية الصفوية. وسرعان ما تقهقرت السرّية الصفوية مع بدء المعركة بين الطرفين

حتى استطاعت استدراج قوات إِسْكَنْدَرْ بَاشَا إلى منطقة قريبة من الجيش الصفوي، ثم باغت آلاف الجنود الصفويين قوات إِسْكَنْدَرْ بَاشَا قليلة العدد على حين غِرّة.



قلعة "أَرْضَرُومْ"

لقد أولى الشاه "طهماسب" اهتمامًا خاصًا بالقبض على إِسْكَنْدَرْ بَاشَا -الذي كان ينعته بـ"يزيد الأصفر" لكونه أشقر الشعر- والقضاء عليه. ذلك لأن هذا البَاشَا المقدام ساهم بشجاعته وحيويته في استيلاء العثمانيين على العديد من القلاع التي كان يسيطر عليها الصفويون، إذ أدهش الصفويين ببراعته وذكائه بالتخطيط لهذه الغزوات. ويُقال إن الشاه "طهماسب" قال في حق إِسْكَنْدَرْ بَاشَا فيما معناه:

> "أيها الغزاة! لو سقط يزيد الأصفر في يدي، لأقطعنّه إربًا إربًا، وسأمنح أجزاء جسده إلى رجالي لأكلها كي تنبت بداخلهم بذور الشجاعة والرجولة."

وعلى الرغم من تعرّض إِسْكَنْدَرْ بَاشَا لهجوم مباغت من القوات الصفوية التي نصبت له كمينًا للإيقاع به، إلا أنه لم يتخلّ عن ثباته وعزيمته أو يتراجع

عن الدخول في معركة دامية أمام جيش الشاه. وقد آثر إِسْكَنْدَرْ بَاشَا الدخول في هذه المعركة مع الانسحاب إلى الوراء بسبب قلة عدد قواته، كما تكبّد الطرفان في هذه المعركة خسائر كبيرة للغاية. حتى إن حاكم ولاية "طِرَابْزُونْ" مصطفى بَكْ، وحاكم ولاية مالاطيا "خير الدين بَكْ"، وحاكم ولاية "بُوزُوقْ" محمود بَكْ سقطوا شهداء في هذه المعركة، كما وقع حاكم ولاية "بيجا" محمود بَكْ أسيرًا في أيدي الصفويين. وعندما وصلت أخبار هذه المعركة إلى السلطان سليمان، أرسل الهدايا والعطايا إلى إِسْكَنْدَرْ بَاشَا تقديرًا لبسالته في مواجهة القوات الصفوية. كما بعث له رسالةً جاء بها ما يلي "يا رب بيّض وجه عبدك إِسْكَنْدَرْ في كلا الدارين. فأنت لم تقصر إطلاقًا في مواجهة جنود الصفويين وأظهرت شجاعة منقطعة النظير في محاربتهم مع قلة عدد جنودك." كما دعا السلطان وزراءه لإرسال خطابات إليه لتطييب خاطره وتخفيف أحزانه.

وكان الشاه "طهماسب" يحاول في ذلك الوقت فرض حصار على مدينة "أخلاط"، حيث لجأ لتطبيق بعض الحيل الخادعة بعدما رأي من مقاومة واستبسال من حامية قلعة المدينة. وعليه، فأخبر قادة الحامية أن جيوش السلطان سليمان بعيدة عنهم، وأما بَاشَاوات الولايات فهم منشغلون بمحاربة أعدائهم، فلن يستطيعوا إرسال قوات إضافية لتدعيمهم، موضحًا أنه على استعداد لضمان أمنهم وسلامة حياتهم إن سلّموه مفاتيح القلعة وخرجوا منها طواعيةً. وقد أحدث هذا العرض الصوري فرقة بين أفراد الحامية الذين قرروا في نهاية المطاف تسليم القلعة إلى الجيش الصفوي. إلا أنهم وما إن دخلت القوات الصفوية القلعة عاثوا فيها فسادًا وتقتيلًا دون تفرقة بين رجل وامرأة وطفل. وبعد أن بسط الشاه سيطرته على "أخلاط"، سار بجنوده للانضمام إلى القوات التي تحاصر مدينة "أرجيش". كما أرسل قوات إضافية لمساعدة الكتيبة الصفوية التي تحاصر ولاية "عادلجوار" التي يحكمها "يولارقصدي سنان بَاشَا أوغلو مصطفى بَكْ". ومع تعرّض قلعة "أرجيش" لقصف مدفعي صفوي على مدار ثلاثة أشهر متواصلة إلا أن القوات الصفوية لم تستطع الاستيلاء عليها إطلاقًا بسبب دفاع "إبراهيم بَكْ" عنها. وبينما كان الشاه في "أرجيش"، عادت قوات ابنه "إسماعيل مِيرْزَا" من "أَرْضُرُومْ"

والتحقت بقواته. ولقد سقطت قلعة "أرجيش" في أيدي الصفويين في الشهر الرابع من الحصار بعد نشوب حالة من الشقاق بين أفراد حاميتها ومقتل "إبراهيم بَكْ" على يد منافسيه للسبب ذاته. وقد أقدم الصفويون على قتل حاكم إمارة أرجيش "بديع الزمان"، وهدموا بنيان القلعة حتى وصلوا إلى أساساتها. عقب ذلك سار "طهماسب" بجيوشه من "أرجيش" إلى "بارجيري". واستبسل قائد حامية المدينة "ذاكر أوغلو محمد بَكْ" في مقاومة هجمات القوات الصفوية، لكنه اضطر لتسليم القلعة في النهاية. وبعد أن استولى الشاه على هذه المدن، عاد إلى "ناخيتشيفان" في ربيع عام ١٥٥٣م. ولقد أحدثت هذه الجرائم التي ارتكبها الصفويون من قتل وحرق وتدمير في مدن شرق الأناضول على مدار ثمانية أشهر متواصلة حالة من الغضب العارم في عاصمة الدولة العثمانية. لا سيما وأن الأخبار حول أوضاع قوات إِسْكَنْدَرْ بَاشَا المنتشرة على مشارف ولاية "أَرْضُرُومْ" قد انتشرت، مما يعني أنه لم يعد هناك أي حاجز أمام نشوب حرب جديدة بين العثمانيين والصفويين.

تحرّك السلطان سليمان نحو "ناخيتشيفان" ومقتل الأمير مصطفى

أرسل السلطان سليمان جنود ولاية الرُّومَلِي إلى الأناضول بقيادة "سُوكُولّو (*Sokullu*) محمد بَاشَا" للردّ على الهجمات المتكررة للصفويين في شرق الأناضول. كما بُعثت خطابات إلى حكام الولايات والإمارات في الأناضول لحشد قواتهم. هذا إلى جانب صدور أوامر إلى الوزير الثاني أحمد بَاشَا بتولّي شؤون الدفاع عن حدود الدولة الشرقية في أوروبا بولاية "بودا".

ولما انتشرت مناقشات بين أركان الدولة حول ضرورة إرسال قائد مشهور يتحلّى بالحكمة والحنكة على رأس القوات المتوجّهة صوب الأناضول، أصدر السلطان سليمان أوامره بتنصيب الصدر الأعظم "رستم بَاشَا" قائدًا على القوات العسكرية المتجّهة إلى شرق الأناضول. وعبر "رستم بَاشَا" مضيق البوسفور نحو منطقة "أُوسْكُودَارْ" الواقعة بالجانب الآسيوي من إسطنبول، ثم تحرّك

نحو ولاية "قونيا" في الشرق. وكان السلطان سليمان يبلغ من العمر ٥٨ عامًا في ذلك الوقت، وقد أنهكت قواه الإحدى عشرة غزوة التي قام بها طيلة فترة حكمه. لكنه بالرغم من ذلك رأى أنه من الضروري الخروج في غزوة جديدة مرهقة لوقف زحف الصفويين نحو شرق الأناضول ليبرهن على أنه مازال قويًا بإمكانه الدفاع عن إمبراطوريته بعدما شعر أن أمن دولته وسلامة عرشه صارت على المحك.

ولقد أقام الصدر الأعظم "رستم بَاشَا" -الذي أرسله السلطان في مقدمة الجيش- فترة في "أنقرة"، ثم وصل إلى قونيا وآقصراي. وفي تلك الأثناء ساءت الأحوال الجوية مع حلول فصل الشتاء، وتسببت الثلوج الكثيفة في إغلاق معظم الطرق. فمكث "رستم بَاشَا" هناك، وأرسل خطابًا إلى السلطان بواسطة قائد سلاح الفرسان "إسفنديار أوغلو شمسي أحمد بَاشَا" المعروف باسم "شمسي أغا"، إذ شعر "رستم بَاشَا" بضرورة إرسال أخبار الأمير مصطفى إلى والده السلطان. وكان السلطان يتلقّى رسائل تحريضية ضد ابنه الأمير مصطفى باستمرار. وتتضمن إحدى عرائض الصدر الأعظم -التي أوردها "شمسي أغا"- بعض المعلومات حول التحريضات التي كان يتلقّاها الأمير مصطفى، ومنها:

> "لقد شاب والدك المجاهد، وصار عاجزًا عن الخروج إلى الغزوات. ولقد أسند مهمة غزو إيران هذه المرة إلى الصدر الأعظم. فلا غرو أن السلطان كان يريد تنصيبك على رأس هذه الغزوة، إلا أن رستم بَاشَا حال دون تنفيذ هذا الأمر. فإذا ذهبتَ واعترضت طريق الجيش، فإن أغلب الجنود سيختارونك ويفضلونك على رستم بَاشَا. وليبقَ السلطان الأعظم في قصوره يتعبّد بقية عمره، وتقوم أنت بإدارة شؤون الدولة وتسيير أمورها ليستتب الأمن ويتحقق الاستقرار."

فلما قرأ السلطان سليمان هذه الرسالة لم يرغب في تصديق محتواها، وربما حذّر الصدر الأعظم بقوله:

"... حاشا أن يكون ابني الأمير مصطفي قد تجرّأ على وقاحة كهذه، وأنا لم أره يرتكب فعلًا كهذا طول حياتي. فهناك بعض المفسدين الذي يفترون الكذب على الأمير مصطفى بَاشَاعة أنباء أنه يرغب في انتزاع السلطة منّي. وإياكم أن تتحدثوا عن هذه الأكاذيب مرة أخرى وأن تشيعوها بين الخلائق".

ومن الصعوبة بمكان أن نثبت أنه قد وقعت في الأساس أو أن السلطان سليمان استخدم عبارات كهذه لإظهار غضبه كردٍ فعل عليها. وربما أبرز المؤرخون العثمانيون هذا السيناريو لإضفاء صبغة الشرعية على واقعة مقتل الأمير مصطفى. حتى إنهم يذكرون أن "رستم بَاشَا" أبلغ السلطان في رسالته أن الجنود أعربوا عن رغبتهم في رؤية السلطان نفسه قائدًا عليهم. فعليه، استدعى السلطان الصدرَ الأعظم إلى إسطنبول، وأخبره أنه يعتزم الخروج إلى هذه الغزوة وقيادة الجيش بنفسه. وتسوقنا هذه الوقائع إلى الاعتقاد بأن السلطان سليمان -الذي لم يكن ينوي الخروج في هذه الغزوة- إنما اتخذ قرار قيادة جيشه بنفسه بعدما أحسّ أن عرشه صار في خطر جرّاء تصرّفات ابنه الأمير مصطفى بوجه خاص. هذا إلى جانب أن هذه الأحداث تدفعنا إلى التفكير أن الأمير مصطفى هو السبب الأساسي الكامن وراء اتخاذ قرار الخروج في هذه الغزوة. وكما أوردناه سابقًا، فإن كافة هذه المشاهد كانت بمثابة الفصل الأخير لهذه المسرحية التي جرى التخطيط لها بدقة متناهية. ولم يدرك السلطان سليمان طبيعة هذه الأمور بشكل كامل.

وما إن وصلت أنباء خروج الجيوش العثمانية لغزو إيران إلى مسامع الشاه "طهماسب"، حتى آثر اللجوء إلى الحلول الدبلوماسية هذه المرة. فبادر إلى إطلاق سراحِ حاكم إمارة بيجا "محمود بَكْ" الذي أسره في إحدى المعارك بالقرب من "أَرْضُرُومْ"، وأرسله إلى إسطنبول لإيصال رسالة إلى الإدارة العثمانية برغبته في إقرار السلام، وإيفاد رسول لعرض مقترحاته لهذه الوتيرة على السلطان. ووافقت الإدارة العثمانية على استقبال رسول الشاه "طهماسب"، وأُرسل خبر هذه الموافقة إلى الشاه بواسطة أحد الرجال الذين كانوا يرافقون

"محمود بَكْ" في رحلته إلى إسطنبول. وبناءً عليه، بعث شاه إيران رسولًا إلى إسطنبول يُدعى "شمس الدين دجلاني" برسالة اعتذار إلى السلطان. إلا أن هذا الرسول لم يعد بالخبر المأمول إلى الشاه لوصوله إلى إسطنبول في وقت كان الجيش العثماني فيه قد أعدّ العدّة، وخرج إلى غزو إيران. واحتجز السلطان سليمان الرسولَ الإيراني حتى وصل إلى حلب، وأخبره أنه بإمكانه الردّ على عرض الشاه. إلا أن الهدف الأساسي الذي خروج من أجله السلطان سليمان من إسطنبول بتاريخ ١٨ رمضان ٩٦٠هـ (٢٨ آب/أغسطس ١٥٥٣م) كان ابنه الأمير مصطفى. وكان السلطان قد اصطحب ابنه الأمير "جهانكير" كذلك عندما غادر إسطنبول. وعندما وصل موكب السلطان إلى منطقة "يني شهير"، جاءه ابنه الآخر الأمير "بايزيد". فأمر السلطان بتعيينه قائدًا للحماية المدافع عن ولاية الرُّومَلِي، وأرسله إلى مدينة "أَدِرْنَه". ولما وصل السلطان إلى مدينة "كُوتَاهْيَا" أتاه السفير البولندي "يازلوفيسكي". وأبلغه السلطانُ بشعوره الإيجابي بشأن الخطاب الذي أتى به، وعبّر عن استعداده لتنفيذ رغبات البولنديين كوقف زحف قوات المغاوير العثمانيين على بولندا وتجديد المعاهدات القديمة الموقعة بين الدولتين. كما سمح له السلطان بالعودة إلى بلاده بعد ذلك.

منمنمة تظهر سليمان القانوني في أثناء موقعة نَاخِيتشِيفَان (سليمان نامه)

تقدّم الجيش العثماني حتى وصل إلى منطقة "بولفادين" يوم ٢٢ أيلول/سبتمبر، وحينها جاء حاكم ولاية صَارُوخَانْ الأمير "سليم" لتقبيل يد والده السلطان، وطلب من والده الانضمام إلى الجيش في هذه الغزوة، فوافق السلطان على هذا الطلب. وأرسل السلطان سليمان يستدعي ابنه الأكبر الأمير

مصطفى الذي أظهره البعض على أنه الخصم المتمرد. وكان مَنْ حول السلطان أثناء الطريق يملأون أذنيه بالشائعات التي تنتقص من قدر الأمير مصطفى وتقلل قدره لدى والده بشكل مستمر. ولقد تحرّك الأمير مصطفى من منطقة "إيرلي" في ولاية "قونيا" ووصل إلى منطقة "آقتبه" حيث يعسكر والده السلطان بتاريخ ٥ تشرين الأول/أكتوبر. ولم يكن يدري بما كان ينتظره، فأمر بنصب خيمته إلى جانب خيمة والده. وفي اليوم التالي، جاءه الوزراء وكبراء الدولة وقبّلوا يديه كما كان متبعًا وقتها، ومنحهم الأمير الهدايا من القفاطين الثمينة. ثم امتطى الأمير مصطفى جواده وسار به حتى وصل إلى خيمة والده، ونزل عن جواده أمام خيمة الديوان الوزاري. وصافحه الوزراء في المقدمة، ورافقوه حتى خيمة السلطان. وبدأ جنود الإِنْكِشَارِيّة في التسليم عليه بصوت عال.

وتشير بعض المنمنمات التاريخية إلى أن الأمير مصطفى كان قد أطلق لحيته عندما جاء لمقابلة والده السلطان. وفي الواقع، فإن إعفاء اللحية بالنسبة لأمراء الدولة العثمانية كانت عادة تقتضي إقامة مراسم خاصة عقب صعود الأمير إلى عرش السلطنة. ولقد أدهش الأمير مصطفى الجميع بمظهره وملابسه تلك، وازدادت الشبهات التي كانت تحوم حوله. كما تواترت أنباء عن إرساله موفدًا إلى البندقية، وإقدامه على عقد بعض المباحثات الدبلوماسية مع المسؤولين الإيطاليين. وبينما يورد تقرير البندقية بعض المعلومات بشأن المبعوث، ينقل كذلك أنه كانت هناك تخوفات كبيرة من وصول هذه الأخبار إلى مسامع السلطان سليمان. حتى يُقال إن الخطابات التي أرسلها البنادقة إلى الأمير مصطفى سقطت في أيدي الإدارة العثمانية.

ودخل الأمير مصطفى خيمة والده وهو واثق بنفسه لأقصى درجة، إذ لم يكن على علم بما سيحدث له. وما إن دخل الخيمة وجد أمامه الجلّادين الذين كان يُطلق عليهم لقب "الأخرس". فلما رآهم تعجّب كثيرًا، وبدأ في الصياح على والده. وهاجمه بعضٌ من هؤلاء الجلّادين، فنشبت معركة بينهم. وأمسك "محمود أغا"؛ أحد أغوات القصر والذي سيُعرف بعد ذلك باسم "زال محمود

بَاشَا"، بذراع الأمير مصطفى، وتمكّن من خنقه بسرعة فائقة. ولم يستطع الأمير المسكين المقاومة، ولقي مصرعه على الفور. وعقب إعدام الأمير مصطفى، أُعدم رجلان آخران من رجاله كانا ينتظرانه خارج الخيمة بقطع رأسيهما. ثم بعد ذلك توجّه المختصون إلى خيمة الأمير وحددوا ما بداخلها. ونُقل جثمان الأمير إلى منطقة "إيرلي"، وصُلى عليه صلاة الجنازة. بعدها نُقل إلى ولاية "بورصا" لدفنه في جامع "مرادية". وقد أشاعت تقارير سفير البندقية -على وجه الخصوص- بعض الأقاويل التي تتحدث عن وجود السلطان سليمان خلف ستارة خيمته بينما كان ابنه الأمير يُعدم، حتى تشير بعض تلك الروايات إلى أن السلطان تحدث مع ابنه وتجادل معه قبيل شنقه. ويسرد تقرير عام نُشر عام ١٥٥٣م هذه الواقعة كالتالي:

"عندما دخل الأمير مصطفى إلى الغرفة الرابعة من خيمة السلطان، وجد والده يجلس ممسكًا قوسًا وسهمًا في كلتا يديه. فانحنى مصطفى احترامًا وتبجيلًا لأبيه. فصاح السلطان في وجهه قائلا

"أيها الكلب الوقح! بأي وجهٍ وأي جرأة تسلّم عليّ حتى الآن!"

ثم أدار رأسه إلى الخلف. وكانت هذه الحركة إشارة للرجال الذين كلفهم باغتيال ابنه الأمير. فلفّ قائد الحرّاس يديه على عنق الأمير على الفور، وحذّره بقوله:

"إياك أن تتحرّك، فأنا أنفذ أوامر السلطان."

كما وثب ثلاثة من الجلّادين الملقبين بـ"الأخرس" عليه، ولفوا حول رقبته حبل القوس لخنقه. لكن هذا الخيط ما لبث أن انقطع، واستطاع مصطفى النجاة بنفسه من أيديهم. وطرح بعضهم على الأرض، وحاول الفرار هاربًا. إلا أنه تعثّر في ذيل ملابسه، وهوى ساقطًا على الأرض. وحينها أمسكه قائد الحرّاس من قدميه، وبادر بقية الرجال إلى خنقه مستخدمين حبال الأقواس. لكنهم لم يستطيعوا خنقه هذه المرة أيضًا، ذلك لأن الأمير مصطفى نجح في وضع يديه بين عنقه وحبالهم، فحالت دون اختناقه.

فقال لهم السلطان سليمان:

"اخلعوا عنه عمامته وإلا لن تستطيعوا قتله."

والسبب في ذلك أن الأتراك معتادون على ارتداء قبعة مكتوب عليها بعض الكلمات أسفل العمامة، إذ يعتقدون أن هذه الكتابات تحميهم من الشرور. فالتقط قائد الحرّاس هذه القبعة وأعطاها إلى السلطان حيث أخذها السلطان ووضعها في إحدى جنبات الخيمة. ثم لفّوا حبلًا ثالثًا حول عنق الأمير مصطفى الذي حاول النجاة بنفسه عن طريق فتح فمه على آخره وإنزال ذقنه حتى صدره. إلا أن الحرّاس رفعوا رأسه بالقوة واستطاعوا قتله بعدما كان يمثل الأمل بالنسبة للعديد داخل البلاط العثماني، كما كان يعتبر الأمير الأشجع في السلالة الحاكمة."

ويمكننا أن نفهم بسهولة تامة أن هذه الرواية تعتمد في المقام الأول على الشائعات التي انتشرت داخل الجيش العثماني، وأنها مبالغ فيها بقدر كبير. وفي الواقع، ليس لدينا أي مصدر آخر نستطيع من خلاله التصديق المباشر لهذه المعلومات التي تذكر لنا كيفية قتل الأمير مصطفى. ويتناول سفير البندقية "تريفيسانو" الذي كانت تجمعه علاقة وطيدة بالصدر الأعظم "رستم بَاشَا" ما حكاه هذا الأخير له حول هذه الواقعة. وقد قال "رستم بَاشَا" له إنه كان متواجدًا داخل غرفة الخيمة أثناء قتل الأمير، مضيفًا أنه توصّل بنفسه إلى قناعات جازمة تشير إلى أن الأمير مصطفى أقدم على تنفيذ بعض الأعمال والمحاولات المشبوهة كي يعتلي عرش السلطنة محل أبيه، وأوضح الصدر الأعظم" أنه نقل هذه الوقائع إلى السلطان سليمان بعدما تيقّن منها تمامًا.

وقد كتب سفير البندقية أن واقعة إَعدام الأمير مصطفى أحدثت حالة من الحزن العميق لدى الجميع سواء الأتراك المسلمون أو الأوروبيون النصارى، موضحًا أنه انتشرت مخاوف بين الناس من اندلاع ثورة كبيرة في أعقاب إذاعة خبر مقتل الأمير، وذكر أن الكره والبغض ضد "رستم بَاشَا" ازدادا بعد هذه الواقعة. ويروي السفير أن مصطفى تلقّى تحذيرات من والدته وبعض أصدقائه بهذا الشأن، إلا أنه لم يرد تصديقهم لثقته في أن والده السلطان لن يقدم

على القيام بحركة كهذه. لكنه في الوقت نفسه قد ذهب طواعيةً إلى خيمة أبيه. ويقول السفير إن الجميع توقّع بشكل مثير للغاية نشوب حالة من الصراع والنزاع بين أبناء السلطان سليمان في حالة وفاته بعدما تقدّم به العمر. ويُروى أن الأمير مصطفى كان محبوبًا للغاية من قبل طبقة الجنود الإِنْكِشَارِيّة، ولذلك كان يتمتع بامتياز كبير للارتقاء إلى عرش السلطنة خلفًا لأبيه. والسبب في ذلك أنه لم يكن أحدٌ يفكّر على الإطلاق أن يعتلي العرش أحد غيره بعد وفاة السلطان سليمان. وبالرغم من ذلك كان الأميران "سليم" و"بايزيد" يمتلكان أوراقًا رابحة لكسب هذا السباق. فالأمير "سليم" يتمتع بوضع يمكّنه من السيطرة على إسطنبول بسهولة بدعم من والدته "خُرّم" والصدر الأعظم "رستم بَاشَا". كما أنه بإمكاننا التوقع بإقدام أخيه "بايزيد" على بعض المحاولات في هذا الصدد. إلا أنه على ما يبدو أن كل شيء جاهز ومعدّ للتنفيذ لمساندة "سليم" للصعود إلى العرش. والآن وبعد مقتل الأمير مصطفى بدأت هذه الأوضاع تبدو بشكل أكثر وضوحًا. ولهذا السبب كان السلطان سليمان يأمل في أن يتواجد ابنه الأمير "سليم" بجواره ويشارك في الحروب، وأن ينجح في كسب ودّ الإِنْكِشَارِيّة وسائر فرق الجيش بالنجاحات التي يحققها في الغزوات. وأما الإِنْكِشَارِيّة والشعب بصفة عامة لم يكونوا يحبون الأمير "سليم"، وكانوا يقلّلون قدره لفشله في تنفيذ أي عمل بطولي يُحسب له، ويلقّبونه باسم "السلطان الساذج".

وفي حقيقة الأمر، لقد أفضى مقتل الأمير مصطفى إلى حدوث حالة من الحزن العام وسيطرة حالة من الانفعال على جنود الجيش. ويبدو واضحًا أن السلطان هو نفسه أيضًا يشعر بالأسى العميق لمقتل ابنه الذي شُنق أمام عينيه. ويبدو أن حالة من تصفية الحسابات نشبت بين أفراد الأسرة الحاكمة العثمانية مرة أخرى كما هو متبع في عادات السلطنة. فمفهوم الدولة لدى العثمانيين قد اتخذ من أبديتها أساسًا له، وكان يرى الأسرة الحاكمة كجزءٍ لا يتجزأ عن هذا المفهوم. ولقد شهد السلطان سليمان الصراع الذي عاشه والده مع إخوته في الماضي عن كثب. ولم يكن يرغب في نشوب حالة من الفوضى في دولته في وقت بلغ فيه من العمر عتيًا. وفي النهاية قرّر التضحية بابنه الأمير

مصطفى في سـبيل حماية إمبراطوريته. إلا أنه كان يتعيّن عليه في الوقت نفسـه اسـترضاء مشـاعر شـعبه الغاضبة. فأقدم علـى تنفيذ بعض الإجـراءات في هذا الصـدد، كان أولها عزْل الصدر الأعظم "رسـتم بَاشَـا" من منصبـه، وعيّن مكانه الوزيـر الثانـي "قارا أحمد بَاشَـا". وكان غرضه من وراء هـذه الخطوة هو حماية زوج ابنته "رستم بَاشَا" الذي لم يبخل في دعمه كثيرًا من أجل الحفاظ على أمن الدولة واسـتقرارها. وقد بادر السـلطان سـليمان إلى تنفيذ هذه الإجراءات رغم الانتقـادات الموجهـة إليـه. لكنه في الوقـت ذاته كان يطمح إلـى تخفيف وطأة ردود الأفعال الغاضبة لمقتل الأمير مصطفى من خلال الخروج في غزوة جديدة إلـى إيـران. وفـي حقيقة الأمر لم يكن "رسـتم بَاشَـا" محبوبًا للغايـة من الجنود والإداريين نظرًا لامتلاكه شـخصية بخيلة. وقد أوضح سـفير البندقية أن "رستم بَاشَـا" لـم يكن ينتظر أن يعاقبه السـلطان بعقوبة أكثر مـن عزله عن منصبه. ذلك أنه كان يعرف السـلطان سـليمان جيدًا، وكان يتصرّف بحيطة وحذر شـديدين. كما أنه لم يكن من النوع الطائش الذي يعطي الفرصة لأعدائه كي يتخلّصوا منه. وبالرغم من أن السفير لم يكن يدري مدى إمكانية إسناد منصب الصدر الأعظم مرة أخرى لـ"رسـتم بَاشَـا"، فإنه لم يقطـع الاتصال به لعظمة قوته ونفوذه، وهو ما سيساعده في المستقبل لتحقيق نجاح دبلوماسي هام للغاية لدولته.

وسنرى أن ردود الأفعال الغاضبة على إعدام الأمير مصطفى لن تهدأ على الرغم من كافة المحاولات الرامية لتخفيف حدّتها. وسنشاهد أن المرثيات التي نظمها الشعراء لرثاء الأمير ستجد رواجًا كبيرًا بين أفراد الشعب، وستنتقل بينهم بشـكل سـريع. ويأتي الشـاعر "يحيى بَكْ" في مقدمة أبرز الشعراء الذين نظموا قصائدهـم فـي رثاء الأميـر مصطفى. ولقد لاقت المرثية التـي ألّفها لنعي الأمير قبولًا واسـعًا بين كافة طبقات الشـعب. حتى إن "رستم بَاشَا" لاحق هذا الشاعر قضائيًّا بعدما اتهمه بالتسبب في مقتل الأمير مصطفى، إذ ألصقت هذه المرثيات تهمـة مقتـل الأمير إلى "رسـتم بَاشَـا"، كمـا تضمّنت بعض العبـارات التي تتهم السـلطان سـليمان وزوجته "خُرّم سـلطان" بهذه الجريمة. وجاء في حق "رستم بَاشَا" في هذه المرثيات ما يلي:

"توارى عن الدنيا ذاك السلطان

وحزن الناس جميعًا لفراقه

فهذه مصيبة أصابت الجميع بأسى بالغ

وأقامت الأفلاك والملائكة المأتم لوفاته

فهم قتلوا هذا المظلوم بغير ذنب

وسيكتب التاريخ مكر رستم"

وقيل في حق السلطان سليمان ما يلي:

"هذا هو السلطان مصطفى يا سلطاني

فهو سرور الدنيا ونور العيون

وبينما كان يسير في طريقه كالشجاع

لماذا سقط وهو في طريقه"

وفي موقع آخر:

"قتلتموه وسال دمه، فهل هذه الحقيقة؟

وأقنعتك أقوال الأعداء، فهل هذه المودة؟"

وفي ما يلي نرى شاعرة تُدعي "نسائي" انتقدت موقف السلطان سليمان وزوجته "خُرّم" إزاء حادث مقتل الأمير مصطفى في مرثية لها قلت فيها:

"لقد ظلمت هذا الشجاع وجنيت عليه

وخنقته من رقبته وآذيت روحه

ولم تهتدِ وترجع عن قرارك وأن تعلم أن الرحمة من الإيمان

وقتلت ملك العالم السلطان مصطفى بلا رحمة"

"سرت وراء كلام ساحرة شريرة

واستمعت لكلامها ومكرها

وظلمت هذه الثمرة التي زرعتها ورويتها طيلة عمرك

وقتلت ملك العالم السلطان مصطفى بلا رحمة"

وبعد مقتل الأمير مصطفى، لم يعُد والده السلطان سليمان إلى إسطنبول، واتخذ قرارًا بمواصلة رحلته إلى غزو إيران. واستكمل طريقه نحو شرق الأناضول على الرغم من اقتراب فصل الشتاء. ويبدو أن السلطان وضع في حسابه أنه إذا عاد إلى إسطنبول في ذلك التوقيت فإن حادثة مقتل الأمير مصطفى ستُقابل بردود أفعال أكثر غضبًا من أي وقت لاحق. وربما تُنسي هذه الغزوة وما سيصاحبها من معارك حربية الجميعَ هذه الواقعة المحزنة بشكل مؤقت. وقد رجّح السلطان قضاء فصل الشتاء في حلب بعدما بدأت أمارات البرودة والأمطار تظهر في الأفق. وتعتبر مدينة حلب من المدن التي قضى بها السلطان سليمان وقتًا طويلًا عندما كان يخرج في غزواته الشرقية، وربما أُعجب بها لدرجة جعلته يفضّل المرور عليها في هذه الغزوة كذلك. وأما وحدات الأمير "سليم" العسكرية كانت ستقضي فصل الشتاء في ولاية "مَرْعَشْ"، فيما سيقضي جنود الرُّومَلِي الشتاء في ولاية "توقاط". وقد سمح السلطان لمبعوث الشاه بالعودة إلى إيران بينما كان طريقه صوب حلب. وفي نهاية الرحلة، وصل السلطان إلى حلب يوم ٨ تشرين الثاني/نوفمبر عام ١٥٥٣م. وكان يرافقه أصغر أبنائه الأمير "جهانكير" الذي كان جسده ضعيفًا ونحيلًا وظهره محدب قليلًا، ولعل مشاكله الصحية تلك جعلت والده السلطان يحبه كثيرًا. وقد شعر "جهانكير" بالإرهاق الشديد من مشقة الرحلة والحزن لمقتل أخيه الأكبر مصطفى، كما أصابه المرض. ولم يكن "جهانكير" يملك أدنى فرصة للصعود إلى العرش مقارنةً بأخويه الأكبر منه. ولقد أصيب هذا الأمير بحالة من التدمير النفسي خشية أن يتعرّض لعاقبة أخيه الأكبر مصطفى في المستقبل على الرغم من عدم رغبته في اعتلاء عرش السلطنة، آخذًا بعين الاعتبار ما فعله والده السلطان سليمان بابنه الأكبر من قبل. كما تفاقمت أعراض المرض عليه مع مرور الوقت. ويروي مبعوث البندقية "برناردو نافاجيرو" ما يلي حول الأمير "جهانكير" في التقرير الذي عرضه على مجلس الشيوخ في البندقية عام ١٥٥٣م:

> "الأمير جهانكير هو الابن الأصغر للسلطان سليمان من زوجته خُرّم. وبالرغم من أن ظهره مقوّس بعض الشيء، إلا أنه على درجة عالية من

الذكاء. وهو يعيش في القصر بجوار والده، لكن عمره تقدّم وحان وقت خروجه من القصر. ويقال إنه أكبر مصدر للمرح والترفيه بالنسبة لوالده السلطان. وهذا صحيح، إذ إن السلطان سليمان كان يصطحبه في كل جولة صيد ورحلة يقوم بها مستقلًا المركب. وكان الأمير جهانكير يقول لوالده "يا سيدي! رزقك الله طول العمر والبركة فيه. أنا لم أفقد أملي في أن أكون حاكمًا كبيرًا. وإن لم يحدث ذلك، فلن يحميني أحد بغض النظر عن من سيكون السلطان.

وقال له والده السلطان سليمان ذات يوم وهو يتنهّد

"يا بني! إن من سيحكم هو الأمير مصطفى، وحينها سيقتلكم جميعًا".

تُوفي الأمير "جهانكير" يوم ٢٧ تشرين الثاني/نوفمبر من العام نفسه. وكان مرضه قد استمر لأربعة أيام، وعندما انتشر خبر وفاته، ظنّ الجميع أن السلطان سليمان هو من مات لحداثة سن الأمير "جهانكير". حتى إن بعض الجنود بدؤوا في سلب ونهب ما قابلهم. ثم وعي الجميع حقيقة الأمر، وخرج السلطان سليمان إلى باب المكان الذي كان يمكث فيه، ووقف متكئًا على عصا كانت في يده، ووقتئذ تيقّن الجميع أن السلطان لا يزال على قيد الحياة. ثم استتبت الأوضاع في المدينة وصار كل شيء تحت السيطرة. وأُقيمت مراسم لتوديع جثمان الأمير "جهانكير"، وبعدها نُقل إلى العاصمة إسطنبول لدفنه. ولما وصل الجثمان إلى إسطنبول دُفن إلى جانب شقيقه الأكبر الأمير محمد في صحن مسجد بُني باسمه -أي الأمير محمد- في إسطنبول. وعندما وصل خبر إعدام الأمير مصطفى إلى زوجة السلطان "خُرّم" أدركت أن أبناءها صار بإمكانهم اعتلاء عرش السلطنة دون مواجهة منافس حقيقي، وتيقّنت أنها وصلت إلى غايتها في نهاية المطاف. إلا أنه يمكن التخمين بسهولة تامة إلى أي درجة هزّت وفاة أصغر أبنائها الأمير "جهانكير" كيانها ووجدانها. وربما اعتبرت وفاة ابنها ما هي إلا تجلٍ للعدالة الإلهية لدورها الرئيسي في إعدام الأمير مصطفى، حتى إنها على ما يبدو نظرت إلى هذه الواقعة على أنها بمثابة عقوبة لجريمتها، مما دفعها إلى محاسبة نفسها على ما اقترفته من الخطايا. لكن حالتها العامة

في الوقت نفسه لم تكن قد ساءت إلى حد كبير بعد أن وجدت عزاءها في سائر أبنائها الآخرين. وأما "مَاهِي دَوْرَانْ" والدة الأمير مصطفى لم تكن لديها فرصة كهذه، إذ كانت قد بلغت من الكبر عتيًا، وشعرت وقتها بأنها صارت في وضع لا تُحسد عليه بعد مقتل ابنها الوحيد الذي كانت تبني عليه آمالًا عريضة. ولقد انتقلت "مَاهِي دَوْرَانْ" بعد ذلك إلى ولاية "بورصا"، ومكثت بها مستفيدة من المبلغ الذي كان يُرسل إليها من القصر في إسطنبول حتى وافتها المنية.

لجأ السلطان سليمان إلى قضاء أوقاته في الخروج إلى جولات الصيد للتخفيف ولو قليلًا عن الحزن الذي أصابه جراء وفاة ابنيْه في حلب. حتى إنه استدعى ابنه الأمير "سليم" للغرض ذاته، إذ خرج مع "سليم" في جولة صيد، لدرجة أنه طلب الذهاب إلى القدس، لكنه تراجع عن هذه الرغبة جرّاء تردّي الأحوال الجوية. وقد استقبل في تلك الأثناء رسولًا قادمًا من ولاية "أَرْدَلْ" في المَجَر، بحيث أخبره هذا الرسول أن الملكة "إيزابيلا" تطلب منه مد يد العون. وأبلغته الملكة أن آل "هابسبورج" عمدوا إلى تكتيكات جديدة لانتزاع دولتها من بين يدي ابنها. وبخلاف ذلك، أقدم السلطان سليمان على تنفيذ بعض الإصلاحات المالية على مدار الفترة التي قضاها في حلب. وأصدر أوامره للحيلولة دون انتشار عمليات الاستغلال وسوء التصرّف فيما يتعلق بجباية الأعشار وسائر الضرائب الأخرى. كما أولى السلطان اهتمامًا بتوسيع رقعة الأوقاف في حلب. ولقد طبّق السلطان كافة هذه الإجراءات كذلك في دمشق والقدس. وكان يتابع أيضًا الأنباء الواردة من الجبهة ضد الصفويين. وجاءه رسل من ولاية "وَانْ" يخبرونه بتحرّكات الشاه وهجمات على الولاية، واصطحبوا معهم أسيريْن صفويين إلى السلطان. وتحرّك السلطان من حلب يوم ٩ أيار/مايو حتى وصل إلى "ديار بَكْر" متبعًا طريق "أورفا"، وأقام في مدينة "جيفليك". وأمر في هذه المدينة بعقد اجتماع ديوان كبير. وبخلاف المعتاد، لم يجتمع السلطان سليمان بأعضاء الديوان فقط، بل جمع في الوقت نفسه حشدًا كبيرًا من ضباط وقادة طبقة الإِنْكِشَارِيّة على مختلف رتبهم، وكان يلقي كلمة أمام كل زمرة من هؤلاء عندما يقف أمامهم. وأخذ يشرح لهم أسباب الخروج

في هذه الغزوة على إيران، موضحًا أن اعتداءات الشاه على الدول الإسلامية تأتي على رأس هذه الأسباب، وأن شرف السلطنة العثمانية جعل من الضروري الخروج في هذه الغزوة. وذكر أمامهم أن الغازين من جنود وضباط الإِنْكِشَارِيَة بذلوا جهودًا جبارة لخدمة الدين والسير على درب آبائهم وأجدادهم العظماء، معربًا عن أمله في أن يرى منهم المزيد من الشجاعة والإقدام وتقديم الخدمات في المستقبل أيضًا. ووعدهم بمكافأة مَنْ يبلي منهم بلاءً حسنًا في الحرب بالعديد من المكافآت القيّمة. وقد دمعت عيون كل من سمع خطاب السلطان هذا وهم متأثرون للغاية، وعاهدوه على السمع والطاعة حتى وإن ذهب إلى الهند أو الصين أو حتى إلى جبل قاف وعدم العودة مرة أخرى. كما وعدوه في نَفس واحد بالتضحية بأنفسهم في سبيله وسبيل الإسلام والوطن، وأنهم سينفذون كل ما يوجه إليهم من تعليمات. وبهذه الطريقة استطاع السلطان سليمان الفوز بقلوب جنود جيشه، إذ حصلوا على جرعة كافية من شحن المعنويات قبيل توجههم للخروج للحرب. ولقد سجّل مبعوث بندقيّ آخر كان متواجدًا داخل الجيش العثماني في ذلك الوقت تلك الواقعة، حيث أفاد بأن الحكام العثمانيين نادرًا ما يلقون خطابات حماسية كهذه، مشيرًا إلى أن خطاب السلطان سليمان أعجب الجميع وأدهشهم. وساهم هذا الخطاب في إطلاع السلطان على حالة جنوده ومعرفة ما إذا كانت سلطته عليهم قد تزعزعت أم لا بسبب حادثة إعدام الأمير مصطفى. وبعد أن اختبر السلطان ولاء قادة جيشه وجنوده له، انطلق إلى ولاية "أَرْضُرُومْ" متبعًا طريق "تشاباكتشور"، وأصدر فرمانًا بحشد جميع جنود ولايات الأناضول في محيط ولاية "أَرْضُرُومْ" في عيد النَّوْرُوزْ (عيد الربيع) وهم يحملون معهم الكثير من المؤن والأطعمة.

وفي هذه الأثناء وصل السفير الإيراني "شمس الدين دجلاني (*Dilcânî*)"؛ الذي سمح له السلطان سليمان بالذهاب قبل ذلك، إلى جوار الشاه "طهماسب" المتواجد في "ناخيتشيفان" مطلع عام ١٥٥٤م، وسلّمه خطاب السلطان. وأرسل الشاه فرقة من المغاوير في ذلك التوقيت إلى ولايات "وَانْ"، و"واسطان (*Vastan*)"، و"أرجيش"، و"عادلجواز" لسلبها، كما نهبت هذه الفرقة المناطق

المحيطة بولايتيْ "هاكّاري" و"جيفار". وكما هي عادته المعهودة، أمر الشاه جنوده بتدمير وحرق كل شيء قابلهم في طريقهم؛ ومواصلة الكر والفر. وقد أصدر السلطان سليمان أمرًا بالخروج في الغزوة لكلٍّ من قائد جنود الرُّومَلِي "سُوكُولّو محمد بَاشَا" الذي قضى فصل الشتاء مع جنوده في ولاية "توقاط"، وحكّام ولايات الأناضول، وسِيوَاسْ، ودمشق، ومَرْعَشْ، وقائد إمارة أضنه. بالإضافة إلى أنه أجرى تغييرًا إداريًا أثناء مغادرته حلب وعيّن إِسْكَنْدَرْ بَاشَا حاكمًا على "ديار بَكْر"، ومحمد بَاشَا بن دوكاكين" قائدًا لحامية مصر، والوزير الثاني إبراهيم بَاشَا قائدًا لحامية إسطنبول. ثم تحرك موكب السلطان سليمان من منطقة "جفليك"، وتقدّم ويرافقه جنود الشام والأناضول وجنود الـ"قَابِي قُولُو" حتى وصل إلى منطقة "جاباقجور (*Çapakçur*)". وعبر الجيش العثماني نهر "مراد" إلى الجهة المقابلة بواسطة جسر بنوه فوق مياهه. وبعد أن تحركت القوات العثمانية من تلك المنطقة، انضمّ إليها حاكم ولاية "ديار بَكْر" إِسْكَنْدَرْ بَاشَا بجنود ولايته. وعندما وصل الجيش إلى موقع "صوشهري (*Suşehri*)"، لحق به "سُوكُولّو محمد بَاشَا". كما انضمّ إلى الجيش كلٌّ من الأمير "سليم"، وحاكم ولاية الأناضول أحمد بَاشَا، وحاكم ولاية كارامان "علي بَاشَا"، وحاكم ولاية سِيوَاسْ "علي بَاشَا"، وحاكم ولاية ذُو الْقَادِرِ "حيدر بَاشَا" (٩ حزيران/يونيو). ثم وصل الجيش إلى سهْل "بسين" يوم ١٢ حزيران/يونيو. وانتظر في تلك المنطقة لمدة ١٢ يومًا حتى تصل إمدادات المؤن. وقد بادر جنود الجيش خلال فترة الاستراحة هذه إلى التدريب على المناورات العسكرية وضرب النار، إذ تنافسوا فيما بينهم لإظهار مهاراتهم وقدراتهم. ويشير المؤرخ العثماني "جلال زاده" إلى أن الفرسان كانوا يقومون بعروض عسكرية على ظهور الجياد، وكانوا ينظرون خلفهم وهم يسيرون إلى الأمام ويصوبون سهامهم صوب آثار نعول الجياد على الأرض. كما كانوا يتمايلون ناحيتيْ اليمين واليسار على أرداف الأحصنة، ويصوبون سهامهم صوب الأهداف وهم على هذه الوضعية، ويلعبون السيوف والتروس كذلك[٨٩]..

---

(٨٩) لورق: *372b-373a*)

ولما وصل الجيش إلى سهْل "قارس" يوم ٥ تموز/يوليو، أرسل السلطان سليمان خطابًا شديد اللهجة إلى الشاه "طهماسب". وكان هذا الخطاب يشبه الخطاب الذي أرسله والده قديمًا إلى الشاه إسماعيل. وقد دعا السلطان سليمان شاه إيران في هذا الخطاب إلى الحرب، ودعاه أيضًا إلى العدول عن مذهبه المنحرف والعودة إلى الإسلام. وقدّم له فتاوى دينية أصدرها علماء عثمانيون تتحدّث عن أن ما يفعله ضد المسلمين هو كفر بواح وزندقة صريحة بحسب المذاهب الأربعة لأهل السُنّة، مشيرًا إلى أن علماء الإسلام أصدروا فتاوى عدّة بشأن إهدار دماء أمثاله إذا أصر على أفعاله. وأضاف السلطان في خطابه أنه عازم على القضاء على الصفويين إذا ما واصلوا المقاومة معتمدين على مذهبهم المضل، موضحًا أنه آثر اتباع السُنّة في إرسال دعوة من أجل أن يتوب ويعود إلى الإسلام قبل أن تنشب الحرب بين الطرفين. كما دعاه السلطان سليمان إلى إظهار الشجاعة والرجولة في ميدان المعركة وعدم الفرار منه خائفًا كالنساء، وتابع بقوله:

> "بعد انسحاب البواسل المنتقمين من أمامك، سعيتَ في الأرض فسادًا تنهب أموال فقراء المسلمين وبيوتهم وتبيدهم قتلًا وتعذيبًا، أولئك العاجزون الذين ائتمننا الله على حفظ أمنهم وحمايتهم. وهذا لا يليق بأهل الإسلام الذين آمنوا بالله واليوم الآخر. فإن كان في قلبك ذرة من نور الإيمان، وفي ضميرك نفحة من العقائد الدينية، فاتبع تعاليم الإسلام، وتُبْ واندم على رفضك وإلحادك بعقائد الإسلام. وإن كنت تخشى مدافعنا وبنادقنا، فهي ليست مُعدّة لمهاجمة الروافض والملحدين، فسيوفنا تكفي لصد بغي فئة مكروهة يعلم مكرها الجميع".

ولقد أوضح السلطان سليمان في هذا الخطاب السبب الرئيسي لخروجه في غزوة "ناخيتشيفان"، كما أخبر الصفويين الموقف الصلب للجيش العثماني من الآن كي يستعدوا جيدًا للمعركة الحاسمة. وسار الجيش العثماني في طريقه حتى وصل إلى منطقة "شوريجيل" يوم ١٠ تموز/يوليو، وبدأ اعتبارًا من تلك المنطقة في الهجوم على كافة القرى والمدن الخاوية حتى عودته إلى إقليم

"ناخيتشيفان". وكان الشـاه "طهماسـب" في هذه الأثناء يحشد كافة قوات جيشه لمواجهة تقدّم الجيش العثماني، وتحرّك من "ناخيتشيفان" إلى مرعى "بازارجاي". وعمدت القوات الصفوية إلى تحويل الأماكن التي سيمرّ منها الجيش العثماني إلى صحراء جرداء، وبدأت في الانتظار هناك حتى تنتهز فرصة سانحة لاصطياد الجنود العثمانيين. إلا أنه في الوقت الذي تسلّم فيه الشاه "طهماسب" خطاب السلطان سليمان، كانت مناطق عدّة من دولته تتعرّض لعمليات الخراب والتدمير. فبالرغم من سكون الأوزبك وعدم مبادرتهم بأي هجوم على الصفويين، دخل "قاسم بَاشَا الشيرواني" في معركة ضد "أوسطاجلو عبد الله خان" وهو أحد المنتسبين للصفويين. هذا بالإضافة إلى أن حاكم ولاية بغداد "عثمان بَكْ" تحرّك حتى وصل إلى مدينة "شهرزور"، وهزم حاكم ولاية أرديلان الكردي "سهراب"، واختطفه إلى مدينة "دينفر". كما قام حاكم ولاية عمادية "سلطان حسين بَكْ" بالانطلاق نحو المنطقة المحيطة ببحيرة "أرومية"، وواصل هجماته حتى وصل إلى مدينة "مراغة". وقد تقدّم حاكم ولاية "وَانْ" فرهاد بَاشَا أيضًا إلى مدينة "إيليشجرد"، وسار بقواته حتى حدود منطقة "أراص".

وبينما كان السلطان سليمان متواجدًا في موقع يُقال له "شرابخانه" يتبع منطقة "شوريجيل"، وقعت معركة بين طلائع الجيش الصفوي وطلائع من الجيش العثماني كان يقودها "ذُو الْقَادِرلي مِيرْزَا علي"، إذ نجحت القوات العثمانية في إلحاق هزيمة بالصفويين، وأسرت عددًا منهم، واقتادتهم إلى مقر قيادة الجيش. واعترف أحد هؤلاء الأسرى بأن الشاه "طهماسب" فرّ هاربًا بصحبة جيشه وتوارى عن الأنظار. وواصل الجيش العثماني طريقه، فعبر منطقة "قافاكيبلي"، ثم وصل إلى مدينة "روان" يوم ١٨ تموز/يوليو. وبادرت القوات العثمانية إلى حرق وتدمير موقع بُستاني يُسمى "باغي سلطاني" كان يخلد فيه ابن الشاه وأمراؤه للراحة والاسترخاء. ووصل الجيش إلى ساحل "أراص"، ثم انتقل إلى مدينة "آرباجاي (*Arpaçayı*)" يوم ٢٤ تموز/يوليو. وفي تلك الأثناء صادفت قوات حاكم ولاية "ديار بَكْر" إِسْكَنْدَرْ بَاشَا مجموعة من الصفويين، ونجحت في تفريقها. وعندما وصل الجيش العثماني إلى منطقة "قارا حصار"،

ظهر سواد في الأفق، وكان ذلك كمائن نصبها الصفويون للقوات العثمانية. فتمكّن العثمانيون من تفريقهم وجعلهم يهربون إلى الجبال المحيطة بالمنطقة. ولما وصلت القوات العثمانية إلى إقليم "ناخيتشيفان" وجدته أُخلي بالكامل وتحوّل إلى صحراء قاحلة. وكان الشاه "طهماسب" قد انسحب من أمام القوات العثمانية وتوجّه صوب مرعى يُطلق عليه اسم "ايكرتشلر (*Eğerçeler*)" يقع بين منطقتيْ "ناخيتشيفان" و"جينجه (*Gence*)". ولم يرَ السلطان سليمان تعقّب الشاه مناسبًا، ذلك لأنه كان من المحتمل أن تواجه القوات العثمانية مخاطر عدّة ومشقات كثيرة طوال الطريق بين الجبال المنحدرة. ولقد اقتنع السلطان سليمان بأنه شفى غلته من الصفويين، لذلك اتخذ قرارًا بالعودة.

وفيما تحرك الجيش العثماني من أجل العودة إلى إقليم "ناخيتشيفان"، وصل حاكم ولاية عمادية "سلطان حسين بَكْ" إلى مدينتيْ "مراغة" و"سرهند" القريبة من عاصمة الشاه تبريز بأمرٍ من السلطان سليمان، وأغار على قوة عسكرية صفوية كانت تقيم في موقع يُقال له "تخت سليمان" وكان من بينهم بعض الأمراء الصفويين المهمين، ونجح في هزيمتهم وتفريقهم، وأرسل إلى السلطان سليمان بعض الرايات والطبول وذيول الخيول التي حصل عليها منهم. وقد عبر الجيش العثماني بقيادة السلطان سليمان مدينة "أراص" يوم ٣١ تموز/يوليو، ووصل إلى جبل "قارجاليق (*Kargalık*)"، ثم إلى منطقة "بايزيد" يوم ٦ آب/أغسطس. وبينما هم كذلك جاء خطاب أرسله الشاه "طهماسب" إلى الصدر الأعظم. وتضمّن هذا الخطاب -بحسب ما ذكره المؤرخ "جلال زاده"- بعض العبارات التي كان من بينها أنه لم يستطع المجيء لمقابلتهم بسبب عجزه، وأنه لن يستطيع مقابلته مطلقًا حتى لو جاء إلى إيران عشرات المرات في المستقبل. وأما الخطاب الذي أرسله الصدر الأعظم أحمد بَاشَا ردًّا على خطاب الشاه فجاء به التأكيد على القضايا التي ناقشها السلطان سليمان في خطابه، مخبرًا إياه بأنه إذا جمعتهم الأقدار في ساحة الحرب فإن القوات العثمانية ستترك المدافع والبنادق وستقاتلهم باستخدام السيوف. فأرسل الصفويون ردًّا على هذا

الخطاب في رسالة يطلبون فيها عقد معاهدة سلام مع الدولة العثمانية. فأجابهم العثمانيون بضرورة عدم السعي في الأرض فسادًا ونشر الفتن في بلاد المسلمين إذا ما كانوا يريدون السلام، وأبلغوهم بأنهم سيقضون فصل الشتاء على الحدود بين البلدين وسيغيرون عليهم بعد انقضائه في حالة إصرارهم على مواصلة البغي بغير الحق. حتى إن هذا الخطاب أشار إلى إمكانية تدمير مدينة "أردبيل" التي تعتبر مكانًا مقدسًا بالنسبة للصفويين. وشمل خطابٌ أرسله حاكم ولاية أَرْضُرُومْ "أَيَاسْ بَاشَا" إلى الصفويين الكلام ذاته، إذ أفاد بأن قواته ستدمّر مدينتي "أردبيل" و"تبريز" بعد انقضاء موسم الشتاء، مشيرًا إلى أن السلطان سليمان سيقبل إبرام اتفاق سلام مع الصفويين إن هم أردلوا ذلك.

ولقد تبادل وزراء كلا الطرفين المراسلات نيابة عن حاكميهما، وتناقشا بشأن كافة الأوضاع فيما بينهما، إلى أن هدّد الجانب العثماني بحرق "أردبيل" و"تبريز" وتدميرهما، مما أقلق القادة الصفويين كثيرًا. كما شعر الصفويون بالقلق والحيرة عندما وصلتهم أنباء قضاء السلطان سليمان فصل الشتاء في ولاية "أَمَاسْيَا"، واقتنعوا بأن التهديدات العثمانية جدّية وليست من قبيل المزاح. تحرك السلطان سليمان صوب مدينة "بايزيد" يوم ٩ آب/أغسطس، ومن هناك وصل "إيليشجرد" يوم ١١ آب/أغسطس. واستطاع أن ينجو بنفسه من خطر حريق اندلع في مرتع يسمى "دولبندي". ووصل الجيش العثماني إلى قلعة "حسن" يوم ١٧ آب/أغسطس. ولقد أرسل الشاه "طهماسب" فرقة من المغاوير يقودها "مهردار شاه قولو" إلى ولاية "داف إيلي (*Dav-ili*)" لنهبها. وتقابلت القوات الصفوية بقوة عثمانية تابعة للحاكم العثماني "سنان بَكْ" بالقرب من مدينة "أولتو (*Oltu*)"، فقتل الجنود الصفويون معظم القوات العثمانية، وأسروا "سنان بَكْ". كما أغارت هذه القوة الصفوية على إمارة "كامهيس (*Kamhis*)"، ثم عادت أدراجها. وواصل الصفويون هذه الغارات أيضًا في جورجيا لفترة من الوقت. وعندما وصل الجيش العثماني إلى سهل "أَرْضُرُومْ"، أرسل السلطان سليمان -الذي وصلته أنباء عن هذه الهجمات الصفوية- الصدر الأعظم أحمد بَاشَا

على رأس قـوة عسـكرية إلـى "أولتو". ووصل أحمد بَاشَـا إلـى "أولتو"، وأخذ يتقـدّم بقواتـه، لكنـه عاد مجـددًا عندما لـم يجد أثـرًا للجيش الصفـوي. وكان الشـاه "طهماسـب" قد سحب قواته لما علم بقدوم القوات العثمانية. وبينما كان السلطان سليمان يقيم في "إيليشجرد"، أتاه رسول صفوي يوم ٢٩ شوال ٩١٦هـ (٢٦ أيلول/سبتمبر ١٥٥٤م) بخطاب من الشـاه "طهماسب". وكان هذا الرسول هـو أحـد الحـرّاس الصفويين ويُدعـى "شـاهقولو أغـا (*Şahkulu Ağa*)". وكان يرافق الرسول الصفوي الحاكم العثماني "سنان بَكْ" الذي سقط أسيرًا في أيدي القوات الصفوية قبل ذلك. واسـتقبل السـلطان سـليمان الرسول الصفوي الذي أقدم على تقبيل يده، وقدّم إليه رسالة الشاه. وقد وافق السلطان على إبرام اتفاق سـلام ونبذ العداوة والبغضاء مـع الصفويين، كما أعطى الرسـول خطابًا موجّها إلى الشاه "طهماسب".

وفي هذه الأثناء وصلت أنباء من حاكم بغداد محمد بَاشَا تشير إلى أن بعض المـدن التابعة لإيـران في منطقة "شـهرزور (*Şehrizor*)" مثل "زالـم (*Zâlem*)"، و"هافـار (*Havar*)"، و"باسـكي (*Paske*)"، "قزلجـه قلعـة (*Kızılcakale*)" قـد تـم الاسـتيلاء عليها، مضيفًـا أن حكام ولايـات "بانـي (*Bâne*)"، و"هيفينج (*Heveng*)"، و"سيادي (*Siyâde*)"، و"أفرامان (*Avraman*)" قدّموا فروض الطاعة والولاء للدولة العثمانية. وتحرّك السـلطان سـليمان من "أَرْضُرُومْ" إلى "أَمَاسْيَا" لقضاء فصل الشتاء بعدما منح حكام الولايات العثمانية الرتب العليا والترقيات للجنود. ووصل الجيش العثماني إلى "سِـيوَاسْ" بعد مغادرة "أَرْضُرُومْ" بعشرين يومًـا، ثـم إلى "أَمَاسْـيَا" بعدها باثني عشـر يومًا. وأسـند السـلطان مهمة الوزارة إلـى حاكـم ولايـة الرُّومَلِي "سُـوكُولّو محمد بَاشَـا"، وأمره بقضاء فصل الشـتاء في ولاية "كارامان". ووصل السـلطان سـليمان في نهاية الأمر إلى "أَمَاسْـيَا" يوم ٣٠ تشرين الأول/أكتوبر، وقضى أيامه التي أقامها بها منشغلًا بالمفاوضات السياسية والمسؤوليات الإدارية، هذا بالطبع إلى جانب خروجه في جولات الصيد.

وكان تفضيل السلطان لولاية "أَمَاسْيَا" لقضاء موسم الشتاء بها -في الواقع- يحمل دلالة رمزية بخلاف كونها المركز الإداري لابنه الأمير مصطفى الذي أمره بإعدامه في الماضي. فقد أردل السلطان سليمان أن يبرهن للصفويين أنه جادٌ في تهديداته التي أطلقها بتدمير مدينتيْ "أردبيل" وتبريز" كما جاء في الخطابات التي تبادلها وزراؤه مع الجانب الصفوي، إذ كان يطمح من وراء هذه التهديدات إلى دفع الصفويين إلى إبرام معاهدة صلح معه. وقد تسبب ذلك الموقف الثابت والحازم من الجيش العثماني في حالة من الخوف الذي أُصيبت به قبائل القزلباش التي كانت تخشى من تدمير مدينة "أردبيل" التي تعتبر المركز الأكبر بالنسبة لهم، والتي كانوا يطلقون عليها اسم "دار الإرشاد". وفي نهاية المطاف، أُجبر الشاه "طهماسب"على الدخول مع وزرائه في مفاوضات سلام مع الدولة العثمانية.

أرسل الشاه "طهماسب" أحد رجاله ويُدعى "فروخ زاد (*Ferruhzâde*) بَكْ" إلى "أَمَاسْيَا" -حيث يقيم السلطان سليمان- برسالة كتبها بودٍ وحميمية شديدة. ووصل هذا الرسول إلى "أَمَاسْيَا" يوم ١٠ أيار/مايو ١٥٥٥م، واستقبله خارج المدينة مجموعة من قادة حاشية القصر وعدد من الرقباء الموظفين. وأُهدي له عدد من الجياد وبعض الهدايا الأخرى المتعددة. وكان الرسول يحمل معه بعض الهدايا لتقديمها إلى السلطان مثل السجاجيد الرقيقة والجميلة، والخيام المطرزة الملونة، وأطقم الأحصنة، وسيوف الشام المزركشة، والتروس الجميلة، ونسخة من المصحف الشريف المذهبة. وبعد أن التقى الرسول الصفوي عددًا من الوزراء العثمانيين، استُقبل في الديوان السلطاني يوم ٢١ أيار/مايو. وقدّم الرسول الإيراني خلال هذا الاجتماع "عرض الإخلاص وصدق النية" من الشاه، وأعرب عن رغبته في إقرار السلام. ثم بعد ذلك استقبل السلطان سليمان الوفد الصفوي الذي قدّم إليه الهدايا ورسالة الشاه "طهماسب". وكانت هذه الرسالة مزينة بأحد عشر بيتًا من الشعر، إذ قدّم خلالها الشاه تحياته إلى السلطان سليمان الذي لقّبه بـ"سلطان اليوم" و"حاكم العالم" الذي تعيش في ظلّه الدنيا بأسرها في رفاهية ورخاء. وأضاف الشاه أنه تلقّى خطابًا أرسله السلطان في وقت الهدنة

مع "قورجو شاه قولو" من "سليمان نبي"، وأعرب عن احترامه لما ورد به. وأفاد الشاه بأنه أرسل مبعوثه "فروخ زاد" تعبيرًا عن رغبته في مناقشة موضوعات إقرار السلام بين الطرفين بشكل مفصل، وأشار إلى أن طلباته من السلطان هي كالتالي:

"ليكن باب التواصل بيننا مفتوحًا على مصراعيه من الآن فلاحقًا حتى يتسنّى لنا إقرار السلام، ويستطيع كلا الشعبين العثمانى والإيرانى إقامة علاقات ودية فيما بينهما. ولنسمح للجميع بزيارة الكعبة المشرفة، وقبور سيدنا محمد ﷺ، والإمام علي في النجف، والإمام الحسين في كربلاء. وفي مقابل هذه المنحة سينشغل زائرو هذه الأماكن المباركة بالدعاء لكم."

لقد مُنح الوفد الصفوي هدايا قيمة للغاية لدى مغادرته الديوان العثماني. واستُقبل الوفد مرة أخرى يوم ١ حزيران/يونيو في الديوان، وسُمح له بالرحيل بعدما أُعطي رسالة مختصرة موجّهة إلى الشاه بشأن موافقة السلطان سليمان على عقْد اتفاق سلام معه. وأوضح السلطان سليمان في رسالته المختصرة التي أرسلها إلى الشاه أنه قَبِل بالطلبات التي سردها الشاه في خطابه، وأنه وافق على توطيد العلاقات بين الجانبين في مقابل تنفيذ هذه المواد الثلاث، وهي كما يلي:

١- حظر كل أشكال السباب واللعن التي يستخدمها الشيعة للنيل من الخلفاء الراشدين وأصحاب النبي الأمين ﷺ وأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

٢- منع أمراء الولايات الحدودية من الإقدام على الاعتداء والإغارة على الأراضي العثمانية ما لم يتعرّضوا لهجوم من الجانب العثماني.

٣- السماح للحجاج من أبناء قبائل القزلباش بأداء مناسك الحج في أمان وسلام وطمأنينة.

وبعد أن أنهى أعضاء الوفد الإيراني مباحثاتهم مع القادة العثمانيين، خرجوا قاصدين العودة إلى بلادهم. وفي تلك الأثناء عُقدت لقاءات مع عدد من الرسل الذين أوفدهم آل "هابسبورج" وكانوا متواجدين آنذاك في "أَمَاسْيَا". وغادر الفريقان "أَمَاسْيَا" في اليوم ذاته. وكان سفير آل هابسبورج "بوسبك"

قد وفد إلى "أَمَاسْيَا" حيث استقبله السلطان سليمان. وقد وصف هذا السفير السلطان عندما التقاه بأنه كان ذا وجه عابس، إلا أنه كان في الوقت نفسه ذا هيبة كبيرة. وكتب هذا السفير أن السلطان سليمان ظهرت على وجهه علامة ازدراء واحتقار بعدما سمع كلامه، واكتفى بقوله: "جميل، جميل".

وفي الواقع، كانت هذه الزيارة من سفير هابسبورج تنطوي عليها خطة سياسية، ذلك أن النمساويين كانوا قد لجأوا إلى الحلول والمفاوضات الدبلوماسية بعد الغزوة التي شنّها العثمانيون على إقليم "أَرْدَلْ". ولقد أرسل "فرديناند" كلًّا من أسقف مدينة "بيتش" المَجَرية "أنطون ورانسزي" برفقة قائد أسطول نهر الطُونَة "فرانسوا زاي" إلى إسطنبول، إذ وصلا عاصمة الدولة العثمانية بتاريخ ٢٥ آب/أغسطس ١٥٥٣م، والتقوا في البداية الصدر الأعظم "رستم بَاشَا"، ثم اجتمع بهم السلطان سليمان بعد ذلك. وقد عرض الوفد النمساوي على السلطان التنازل عن أراضي المَجَر الأصلية لـ"فرديناند" في مقابل إبرام اتفاق سلام بين الطرفين وضرائب بقيمة ١٥٠ ألف قطعة ذهبية، و٤٠ ألف قطعة ذهبية إضافية في مقابل التخلّي عن إقليم "أَرْدَلْ" وشمال المَجَر. وبعد أن التقى السلطان سليمان الوفد النمساوي، استمرت المفاوضات مع وزرائه لعدم وجود السلطان في العاصمة بسبب خروجه في غزوة إيران. ولقد أعرب أركان الدولة العثمانية خلال هذه المفاوضات عن استحالة التنازل عن إقليم "أَرْدَلْ"، لكنهم أعربوا عن عزمهم إطلاق سراح سفير هابسبورج "مالفيزي" الذي طُرح في السجن قبل عامين. وعقب خروج السلطان سليمان من إسطنبول قاصدًا غزو إيران، استقبل الصدر الأعظم "رستم بَاشَا" وفد المبعوثين النمساوي الذي أفاد بأن حبس سفير بلادهم يعتبر منافيًا للقانون المتبع بين الدول، فما كان من "رستم بَاشَا" إلا أن ذكّرهم بواقعة قطعهم أنف وأذنيْ الرسل العثمانيين الذين أُرسلوا إلى النمسا إبّان صعود السلطان سليمان إلى عرش السلطنة. ولقد تعجّب السفراء النمساويون من سرد "رستم بَاشَا" هذه الحادثة، وقالوا له إنها وقعت في زمن الملك السابق "لايوش الثاني"، وأنه لا يمكن ربطها بأي حال من الأحوال بالإمبراطور "فرديناند". فردّ عليهم الصدر الأعظم بقوله:

"هكـذا أنتـم أيهـا المَجَريـون! فقدتم بَلْغـرَاد وملككـم ومملكتكم لهذا السـبب. كما أخللتم بآخر هدنة موقعة معكم لمدة ٥ سـنوات، وأغرتم على إقليم أَرْدَلْ. وأما نحن فاسـتولينا على مدن تيميشـوارا، وسـولنك، وليبوفا، وبيتش."

وبينمـا كان الوفد النمسـاوي عائـدًا إلى بلده، تواصلـت الاضطرابات على الحـدود بيـن الدولتيـن. إلا أن "فرديناـنـد" أصابه الخوف والهلـع بعدما وصلته أنباء تشير إلى أن الدولة العثمانية توصلت إلى حل للأزمة المندلعة مع إيران، فلجـأ إلـى محاولات التفـاوض مـع الجانـب العثماني عبر الطرق الدبلوماسـية خشـية أن يسيّر السلطان سليمان حملة عسكرية للإغارة على بلاده. ولقد لعبت مشـاكله التي كان يعانيها مـع فرنسـا دورًا بارزًا في تحقيق مراده. كما أنه، وبينما كان السـلطان سـليمان منشغلًا بغزو إيران، انتشرت فرمانات تفيد بأن "فرديناند" هو المتسبب الرئيسي في ما حدث لإقليم "أَرْدَلْ"، حتى إن السلطان أرسل فرمانًا حول هذا الشأن عندما كان في حلب بتاريخ ٧ نيسان/أبريل ١٥٥٤م. وفي وقت كان فيـه مبعوثـو "فرديناند" يواصلون مفاوضاتهم الدبلوماسـية مـع المسـؤولين العثمانيين في إسـطنبول، أرسـلت ملكة المَجَر والنبيل الصربي "بيتر بيتروفيتش" وفدًا من الرسـل لتقليل قدر "فرديناند" لدى السـلطان سـليمان ومحاولة إفشـال محاولاته الدبلوماسـية الرامية لإقرار السـلام مع العثمانيين. إلا أن مسـاعيهما بـاءت بالفشـل الذريـع. وطلـب مبعوثـو الملكـة "إيزابيـلا" بوضـع "يانـوش سيجيسموند" ابن الملك "زابوليا" الذي بلـغ عمره آنذاك ١٤ عامًا تحت وصاية السـلطان سليمان، ومنحه ولايات "سـوليمار" و"ليبوفا" وبعض القلاع الأخرى. ولكافة هذه الأسباب التي ذكرناها شعر "فرديناند" بضرورة إيفاد هيئة دبلوماسية ذات صلاحية واسـعة إلى إسـطنبول لمقابلة السـلطان سـليمان من أجل تلافي أسـباب العداوة بين الجانبين في أسـرع وقت ممكن. وبالفعل أرسـل "فرديناند" هيئـة جـاء على رأس المشـاركين بها كلٌّ من "بوسـبك"، و"أنطون ورانسـزي"، و"فرانسوا زاي" إلى إسطنبول مطلع عام ١٥٥٥م. وكان يرأس الوفد النمساوي فـي هـذه الرحلة "بوسـبك" ذو الأصول البلجيكية، وكان يحمل معه رسـالة من

"فرديناند" إلى السلطان سليمان. ولقد ألّف هذا المبعوث رسائل باللغة اللاتينية حول ما رآه في أراضي الدولة العثمانية، وتُرجمت هذه الرسائل إلى لغات عدّة تحت مسمّى "الرسائل التركية"، وكانت تضمّ معلومات مثيرة للغاية بشأن مظاهر قوة الدولة العثمانية وضعفها في تلك الحقبة التاريخية الهامة. حتى إن "بوسبك" نال لقب أول من اكتشف معبد "أوجست" القريبة من مدينة أنقرة.

وعندما وصل "بوسبك" والوفد المرافق له إلى إسطنبول علم أن السلطان سليمان لازال مقيمًا في ولاية "أَمَاسْيَا"، فتحرّك إليها مباشرة. وخلال مراسم حفل استقباله من قبل السلطان، قدّم "بوسبك" إلى السلطان سليمان عشرة آلاف قطعة ذهبية، وطاقم طاولة طعام من الفضة المزركشة والمنقوش عليها بالذهب، بالإضافة إلى رسالة "فرديناند". ولقد حاول "فرديناند" في هذه الرسالة إثبات حقه في حكم إقليم "أَرْدَلْ"، حتى إنه أبلغ السلطان أنه يلجأ إلى عدله وسماحته لمساعدته في تحقيق هذه الغاية. كما زعم الوفد النمساوي خلال اللقاءات التي عقدوها مع السلطان ومسؤولي البلاط بأن مسؤولية إفشال جهود السلام بين الطرفين ملقاة على عاتق العثمانيين. وقدّموا وعودًا بدفع مبالغ لإثبات حسن النية من أجل إقرار السلام منها ٨٠ ألف قطعة ذهبية للسلطان، و٢٠ ألفًا للصدر الأعظم، و١٤ ألفًا للوزراء. لكنهم في نهاية المطاف استطاعوا الحصول فقط على وعد بالهدنة المؤقتة لمدة ستة أشهر. وغادر الوفد النمساوي ولاية "أَمَاسْيَا" بتاريخ ٢ حزيران/يونيو ١٥٥٥م وهو يحمل رسالة من السلطان سليمان. وفيما كان الوفد النمساوي في "أَمَاسْيَا" لمناقشة شروط السلام مع الإدارة العثمانية، وكذلك سفراء إيران، توافد سفراء فرنسا وبولندا والبندقية لتقديم التهاني على هذه التطورات. وامتلأت جنبات "أَمَاسْيَا" بسفراء الدول الأجنبية. ثم تحرّك "بوسبك" على رأس الوفد النمساوي بعد ذلك من إسطنبول إلى النمسا. وقبل أن يغادر السلطان سليمان ولاية "ديار بَكْر" جاءه السفير الفرنسي "كوديجناك"، وطلب منه تقديم المساعدة بأسطوله للدخول في معركة ضد "كَارْل الخامس" بالقرب من سواحل جزيرة "كورسيكا". فوافق السلطان على هذا الطلب، وأرسل أمرًا في الحال إلى "تورجوت رئيس" قائد الأسطول

للاهتمام بهذا الشأن. وبعد إبرام معاهدة سلام مع الوفد الإيراني، سار السلطان عائدًا من "أَمَاسْيَا" إلى إسطنبول بتاريخ ٢١ حزيران/يونيو ١٥٥٥م.

ونصّت المعاهدة التي أُطلق عليها معاهدة "أَمَاسْيَا" على اعتراف الصفويين بسيطرة الدولة العثمانية على ولايات البصرة، وبغداد، و"شهرزور"، و"وَانْ"، وبِتْلِيسْ، وأَرْضُرُومْ، وقارس، وبلاد الأتابكة. وبهذه الطريقة استطاع الطرفان الاتفاق فيما بينهما على مناطق النفوذ في جورجيا ولو بشكل نسبي. كما أسهمت هذه المعاهدة في خفض التضاد والتشاحن الديني بين العثمانيين والصفويين إلى مستوى مقبول. ولقد دامت معاهدة "أَمَاسْيَا" نحو ربع قرن من الزمان حتى وفاة الشاه "طهماسب" ونشوب نزاعات في إيران، إذ ستشكّل هذه المعاهدة أساس المعاهدات التي ستُوقع بين الجانبين في المستقبل.